ضوء بعيد في العتمة

روايـــــة

ربيـــع الصبـــروت

مصر العربية للنشر والتوزيع
١٩ ش إسلام حمامات - القبة
القاهرة

العنـــــوان : ضوء بعيد في العتمة ـ رواية

المـــؤلـــف : ربيع الصبروت

النـــاشـــر : مصر العربية للنشر والتوزيع

١٩ ش إسلام حمامات ـ القبة

القـــاهـــرة

ت. ف : ٢٥٦٢٢٦٨

E.mail.m_arabia @ the wayout.net

رقـم الإيـــداع : ٥٦٧٦/٢٠٠٠

الترقيم الدولى : 977-5471-33-8

هل تدرين أين أنا، وكيف أكون ؟ هل قلت لك كيف بحثت عنك حتى التقيتك، وكيف تبدلتُ لما اختفيت فذبت ؟

حين صار الناس يرددون اسمينا معا، ابتسمت وقلت لك (معهم حق ! وهذا طبعا دون غرور ! فما أظن أنطونيو سأل كليوباترا وهو يقع في غرامها : ماذا تعبدين وليلى كانت لقيس القبلة والمعنى .. كان الشيء السر هو الجوهر فلم تقتله المسافات ولا الخرافات، لا لون عطيل ولا هوس روميو ..)

وأنا انتظرتك منذ قدم عمرو بجنده . فتشت عنك في عين شمس وفي الفيوم، في سيناء وفى الإسكندرية . بحثت في الصعيد حتى النوبة، وعدت إلي الحصن ففتحته ولم تكوني هناك . قال لي بعض الجند : ابحث في المنصورة، وقال أخر : لا، بل في دمياط، وثالث أكد إنك في بور سعيد أو الإسماعيلية، وكان على مقربة منا فارس تجاوز الخمسين بلحية فتية قال لهم : أخبروه أن يبحث في أشمون ومنوف، وفيما سار الجند باتجاه الحصون ..

سرت وحدي من حلوان إلي القناطر أسأل الرهبان في الأديرة، والآباء أمام المذابح، لكنهم يخشون منى فلم يجيبوني . سألت المارة على الطرقات وعبدة النار .. وحينما جاءت المشيئة أُلهمتك ..

في ركن، على زاوية بين الريف وبين الحضر، جلست أستريح أخرجت كتابي أطالع فيه ما غاب عنى، ثم إني في لحظات تأمل، تطلعت

إلي الرابية التي تمتد داخل المياه وقد جفت أعشابها، وكـــانت رائحتـــها مـــا تزال طيبة . استطعمتُ خَرجي فلم يجُد بغير قديد وكنت ظامئا ..

في هذا الموضع الذي هو طمي مغطى بالرمل، الموصول باليابســـة والممتد إلي النهر، وفى هذه اللحظة بعينها تخلقت خطوطك الأولى في عقلـــي ليعشقها قلبي !

في هذا التجلي عرفت بوجودك بين الأحياء، ولقُنتُ الســـعي نحـــوك فيما أسعى، ما كنت لأكتب عنا لولاك، فما كنت سوى عامل مــــاهر حفـــظ مفاتيح الهندسة فعلمته كيف يقرأ نفسه، وكيف يتـــهجى الكـــون ! مـــا كـــان لحروفى أن تتراص بكينونتها .

كما هي في نسق يعطى معنى ما لم أعثر على ملامحـــك الأولـــى . مجرد خطوط فأستمسك بها وأحفرها في، وأظل أبحث عنك مهتديا بها .

جئتك من بيدائى بصدق وأمانة، ألهث خلف ظمأى، فمـــاذا فعلـــت ؟ اقتلعتني من بيروقراطية الوظيفة وظلمة الأحزاب ووحشة الوحدة ! ألم أقـــل لك ليلتها ؟! يا لتعاستي وغبائي !! ليلة عرسك أنت لـــم أمنحـــك شـــيئا، ولا حتى هدية أمي .

ودعوتها المفتوحة لزيارتنا في أي وقت تشائين ! فهل تعلميـــن أيـــن ذهبت هدية أمي ؟ أم قررت عدم قبول هدايانا ؟!

أمي التي حلمت وحكيت لها . قبعت أمامي تسمع، وأنا أقص رؤيـــاي عنك، وكنا في الغيب محصن ومضه .

(... فتاة من خمر وتـُقى لم تعمد بعد، انكفأت فى أتونها، وهى لـم تمنحني نفسها . ألبسني الحزن لباس العاشقين وجرت فوضـاهم بإنحـائي، وحينما سمعت هاتف يذكر العفاف. انتبهت مداركها الحقيقية فاكتشفتنى .

حاورتني فوقعت في هواي . عقل بعقل وقلب بقلـب، ثـم ارتفعـت صخرة بيننا فكنت اسمعها وهى تسمعني، نفرغ جيشـاننا . وإذا الصخـرة جبلا، وإذاي وحيدا أحادث طيفها حتى طفرت عيناي ، أرتل غـزلا عفيفـا ووجدا صوفيا، أكاد أجن وتتهيأ نواجذي والأصابع، كأنها أمامي أنشب فيـها أظافري حتى أحس ملمسها، أدرك سذاجة ما يفصل بيننا وعدم قدرتي علـى اجتيازه فأكاد أنشد شعرا خليعا، ثم أنكمش مهدودا وأتراجع . أحملق صـوب انحدار السماء إلي حافة الصحراء، فأراها هناك ، هي بجمالها، والرغبـات المحمومة اللحوحة، بأنفتها وكبريائها، بوداعتها وصمتـها، تحـادث طيفـا تخاطبه بأسمى وتبكى ..

ارتجت البيداء فانكشفنا ، والتقينا على البعد بإحدى المدن . أنا علـى رصيف محطة القطار، وهى على الرصيف الآخر، وحالما وخز القلب منـا العقل، حدقت العيون، غير أن العربات المرتفعة والزحام، وطائرات الأطفـال الورقية، كانت دائما تجرح الضوء المتشبث باستماتة ثم لا يلبث ينكسر، لكنه لا يموت ولا ينطفئ..)

ضحكت أمي وقالت:

- والله ما فهمت حاجة !

ثم شردت بعيدا، وبدت حزينة، وقد أحست بكدري فقامت تقضى شغلة .

فهل كان من الممكن تحقيق هـــذه الشـــطحات ؟ وان تحضـــن هـــذه الحجرة صورة حقيقية لكل ما رأيته ، لـــك !، وأخـــرى رســـمتها لوجـــهك بالرصاص، وأن تمزق أحدهما أثناء التفتيش ونؤخذ الثانية كدليل ضـــدي ؟ ! فحين رددنا معا (بعيد عنى وليلى يطول .. على قلبى وضعت يـــدا .. يـــا مال الشام .. مسير الشمس، ..) وغيرها وغيرها .. عشرات الأغاني، لـــم نسأل ما وجهه المؤلف أو المغنى! كنا نردد معـــا فـــي ســـاعات الصفـــوة والمعاناة، وعند إلحاح الرغبة نجد ما ننشده ، وساعات الصفـــاء والتـــأمل، وهى كثيرة، لم يكن للنيل من صاحب سوانا ولم تدخل مياه الرياحات حينمـــا نؤوب إليها-حزبا ولم تبايع لحاكم، لا الروايات والقصائد والقصص الجميلـــة ولا اللوحات الكونية والبشرية .. كلها كانت تفعيلات في قصيدتنا نحن، هـــو وحده منحها لنا، وكنت تضحكين حينما أنسى وأنـــاديك بمريـــم أو هـــاجر، وأحيانا سارة وأهم بالاعتذار ثم يعتريني الشجن فتسألين مستغربة.

هل تذكرين ما قلته لك ساعتها . إنني أرى طيورا تنطلق من عينيـــك حينما تومئين، لحظة ارتفاع أهدابك كأنها ضوء يفسح لضـــوء، طـــير يقـــدم طيرا، يمنحه الحرية .. تمنحينها لسواك وأنت تنشدينها ! ثم هـــدأت نفســـي قليلا وقلت مبتسما : أنت تنتظرين بأناقة ! فابتسمت لا لإطرائي، بـــل كمـــا قلت بشغف.

- أنت تسبر أغواري بمحبة وأنا فرحة جدا .. ممتنة أنه ألهمني إياك ..

مـــع كل هذا الليل، لم افقد اليقين، سأصبر وأجاهد حتى نلتئـــم فـــهو قال لنا : أنت لها، وهى لك . فمتى تأتين ؟!

يا ألهى ! هل كانت هذه اللحظة تدخل في دائرة الإمكـــان ؟! وأنـــا اجلس هكذا وحيدا، على دكه خشبية مسننة وقلقة، في طرقـــة تفضـــى إلـــي المجهول بأنوارها المتناوبة كأنها في حوار غامض، والخطى العجولة تدلـــف إلي أبواب تغلق ذاتيا، وصمت فاحش، وأنت لست معي، وأنالا أعلـــم أيـــن، أنتظر على حد السيف استجوابي الثالث بلا رحمة، وأعيد على الآذان بدايتنـــا حتى هذه اللحظة ..

هل يمكن أن تكوني هناك كما تؤكد هواجسي؟ تختبئين في صـــدر أو نفس أو كهف بعيدا عن شراذم الواقعين في هواك تحايلا، وبعيدا عن آكلـــي لحوم البشر ؟! إذن فكوني حيث أنت، أبقى حيثما تكونيـــن، حتـــى تسـمعى صهيل خيلي أو تشمي رحيق دمى .. وأدعه ينجني من هؤلاء الجاثمين على أنفاسي. لن أراوغهم وسأحكى لأنهم لن يفهموا، وها هـــم الآن يـــأتون مـــن الباب الجانبي بعد أن أكلوا وشربوا وضربوا، بعد أن عذبوا وشتموا وأهـــانوا .. طوالا جهمين، يطردون الهواء بقدومهم ويكتمون الأنفاس، ومع هذا لا بـــد من الكلام ..

كنت موقنا وأنا أقترب من البيت المظلم أنهم ناموا، وأحكموا إغـــلاق الأبواب، ورغم هذا تحسست منتصف الضلفة المتحركة بحثا عن المقبـــض، ودفعت بحذر فإذا بها تتحرك فعلا !، خطوت خطوتين، وأصبحت أمام بـــاب حجرة الجلوس . شبح أخر يجلس على الكنبة المواجهـــة، وضـــوء اللمبـــة السهارى معلولا لا يفصح عن شئ، ولولا الظلام المحيط، مـــا كـــان لـــهذا الضوء الشاحب أي حضور .

كان أخي متكئا بذراعه على المسند ووجهه جهة الباب، وقد عرفني دون أن يرفع رأسه، تابعت عينيه فوجدتهما تستقرأن على حذائي . ابتسم بشيء من المرارة والسخرية وهز رأسه قائلا:

- أهلا !

ثم رفعه يتأكد من وجهي، ونهض . لم أتكلم ولم أسلم، وهو صامت مر بجانبي فاستدرت، وسرت خلفه حتى وقف في فتحة الغرفة الثانية المظلمة، وابتسم من جديد لا أدرى بأسى أم بشماتة.

- البيه رجع !

ثم تنحى قليلا كي أدخل، ولكنى ظللت مكاني لا أجد ما أقوله .

كنت أشعر بحضورهما بالداخل، بأنفاسهما، بعيونهما تلتهمانى، وكنت أتمنى أن يختصرا ما يقولانه كل مرة، ولكن أحدا لم يتكلم ! هل ناما حقا ؟ وبغته اهتززت على صوت أبى ينادى أخي ، ويأمره باقتضاب وحسم

- أقفل الباب .

كانت المرة الأولى التي أتغيب فيها ثلاثة أيام بلياليها عن البيت، وكنت حينما يشتد غضبى، اقضي اليوم بعيدا، فإذا حدث خصام وضيق، امتد السهر بالخارج حتى الصباح، وعندما أعود . لا تكف هي عن الكلام، وتعد اليوم شهرا.

- يوم وليلة !

وأنا أظن أنه يوم كأي يوم وهى تعيد الكلام بتأنيب غريب .

هذه المرة، ورغم إدراكي لطول فترة ابتعادي، لم اكن اشعر بنفس الخوف القديم، ولا الحزن المبهم الذي كان يعتريني بعد كل مشاجرة .

استدرت متفاديا أخي الكبير، وصعدت إلي حجرتي، وفوجئت بها وأنا أخلـــع ملابسي تدخل دون كلمة . وضعت الأكل على الترابيزة الخشـــب المـــدورة التي كنت أذاكر عليها، وخطفت نظرة على وجهي أربكتنى ونزلت، والحـــق إنني اندهشت من نفسي، إذ لم يبد أي تغيير داخلي أمام تصرفها، فهي فـــي النهاية ملزمة بما تفعل، ورغم هذا شعرت بقدر من الحـــرج لـــم أعـــهده . خلعت ملابسي، وأكلت لقمة صغيرة، ثم تمددت على السرير، ورغم توفـــر أسباب الضيق، ووطأة اللقاء البارد، فقد اختفى هذه المرة من صدري، ذلـــك الشيء الذي كان يأكل قلبي ويعتصره كلما تشاجرنا، فهل تعودت هذا الجـــو ولم يعد مؤثرا ؟ أم أن السبب هو القرار الذي وصلـــت إليـــه أخـــيرا بعـــدم الاستمرار هنا ولو بعد حين ؟ .. أم تراها تلك البنت التـــي عرفتـــها عنـــد زميلي ياسر في شبرا ؟ إن صورتها الأولى لا تغادر خيالي، وعلى الرغـــم من تكرار اللقاء، فما زالت لقطة اللحظات الأولى محفورة داخلـــي . عينـــان شاسعتان يغمرهما بياض ناصع، تقطّرت بداخله نقطتين سوداوتين، وعلـــى شاطئيهما رماح من لهب .

بعد سماعنا لنقر خفيف على الباب، فتحت أم ياسر وأدخلتها، ورأيـــت الوجه من نظرة عابرة، حيث يواجه الداخل باب الحجرة المفتوح التـــي كنـــا نجلس فيها أنا وياسر، ولأنها لم تسلم على أم ياسر ولم تستخدم الجرس، فقـــد ظننتها أخته . أطرقت قليلا وهو يريني صور رحلاته، ولكنني كنت أحـــس بوجودها فى الصالة، وجلوسها بمفردها تنظر نحونا، ثم تنظر جهة المطبـــخ الذي دخلته أم ياسر، ولما خرجت بعد دقائق بصينية الشاي، وقفـــت البنـــت

وأخذتها منها . جاءت بها إلينا وقلبي يكاد ينطق (مساء الخـــير) تسـلقت جسدها عيناي . ارتقتا إلي عينيها فلم أدر إن كنت رددت أم لا .

ابتسم لها ياسر، وأخذ الصينية وضعها على الترابـــيزة، وهـاجمني هاجس جديد هو أن تكون خطيبة لياسر، أو في سبيلها إلي ذلك، ولكنه قطـع هواجسى كلها وقدمها لي ببساطة .

سوزى جارتنا، خريجة أثار . المهندس سامي ، زميلـــي وصديقــي كان يمكنني رغم نضارتها، تبين حزن عميق في عينيها، وأراحتنـي كثـيرا ملامحها الفيروزية . أعطاها ياسر ألبوم الصور، وناولني سيجارة محـــاولا بـدء حديث معي، ولكنى كنت أطابقها بتلك التي تراءت لي وغزتنـي مـن قبل .. هي هي ! الصمت والجمال والحزن والذكاء .. هي من حدثت أمـي عنها !

خطفت نظرة أخرى إلي جلابيتها البيتى، ثم أشعلت الســيجارة مـن ياسر الذي غمرني في يدي كي أنتبه للولاعة التي أشعلها، ولمحت شـعرها المتدفق في مده وجزره موجة أثر موجة . وأدركت أن ياسر انتبه لانشـغالي بها، ففكرت في سؤال، وعدت التفت إليها.

– بتشتغلى؟

كانت في صمتها وبساطتها وحزنها تذكرني بأغاني فيروز التي كنـت اسمعها ليلا من الإذاعات العربية قبل الخصام.

قضيت أسبوعاً بالمنزل كأنني ضيف . تدخل أمي صامتة . تضـع الطعام وتنظر نحوى برهة ثم تنزل، وأبى وأخي الذي يكبرني لا يكلمـاني . أخي الكبير هو الذي سألني مرة (فيه حاجة ؟)، وأختي الوحيدة المتزوجـة

هي التي تكلمني حينما تأتى لزيارتنا، وكنت أدرك الحيرة على وجـــه أمـــي وهى جالسة أمام حجرتها تنظر إليّ وأنا نازل إلي الشغل غـــير مـــهموم ولا مبال، واليوَم سألتني لأول مرة منذ عودتي.

- أنت بتحب يا قلبي ؟

وابتسمت رغما عنى، فقد كان السؤال مباغتا، وربما لأنه أبـــان مـــا بداخلي، أو أنه لخص الحوارات الطويلة التي أرقّتني وكشف مـــا أعانيـــه، فعدت إلي العبوس، وقلت وأنا افتح الباب الخارجي.

- احتمال أروح مأمورية يوم أو يومين ..

وخرجت لم أكن قد فكرت قبلا في اختراع هذه المأمورية، وربمـــا وضع سؤالها المباغت عن الحب، قدميّ على أول الطريق فلـــم أتوانـــى، إذ كانت سوزى لا تغادر خيالي، وكنت لم أزل في دهشة تحقق حلمـــي بـــهذه البساطة .. لقاء من تراءت لو وحلمت بها !

فأثناء الدراسة بالجامعة، تعرفت علـــى زميـــلات، واثنـــاء الخدمـــة العسكرية، قدمت لي أمي كشفا من الذاكرة بقريبات ظننت أنى لا اعرفـــهن، وكنت في كل مرة أحس أنني لم التقى بعد بمن أريدهـــا ! وعقـــب تســـلمي خطاب التعيين من القوى العاملة، وكنت ما أزال فى الخدمة العســـكرية، دب في أمي نشاط غريب، وتملكتها حمى الزواج.

- لازم تتجوز !

وكل ليلة تخرج ! هي التي لا تحب الزيارات، وجدت أســـبابها فـــى غمضه عين . هذا مسافر، وهذا جاء من السفر، فلان بعافية فلانة زعلانـــة مع زوجها، وتعود بعد كل ليلة مستبشرة لأنها وجدت بنتا جميلة ومؤدبة عنـد

قريبتها فلانة، أو عند الشيخ فلان، ثم يخبو حماسها قليلا أمام الفتور البـــادي على وجهي وملامحي الشاردة، وأنا استقبل كلامها وأفكر في شئ أخر .

كان خطاب التعيين مختصرا، ويفيـد بتعييـنـي كمـهندس بـالتفتيش الزراعي، وهناك تعرفت على ياسر وبقية الزملاء والزميلات، وقد مضـــت ثلاث سنوات دون اللجوء إلي شاطئ .

عقب دخولي المكتب، بحثت عن ياسر . قالت نادية وهى تحدق فـــي عيني (نزل تحت) وأخذت أعــدو فـــي الطرقـــة، وأقفــز هابطــا الســلم فاصطدمت به . أمسكته من ذراعه متنهدا وهو يتأملنى بدهشة، ولـــم يتكلـم حتى دخلنا حجرة مكتبي وأغلقت الباب .

– ياسر " أنا جى معاك البيت .

وأطرقت قليلا، ثم استدركت .

– أنا اتخنقت تانى !

وبعد لحظات طويلة، قال وهو يمعن فى عيني .

– أنت بتحب سوزى .

وكأنه صفعني . احمر وجهي، وتحول وجهه إلي وجه أمي . كأنـــها هي الواقفة أمامي الآن، ولم أجد ما أقوله، إذ بدا الأمر واضحا تماما . كـــان حبها قد سيطر عليّ ولا أستطيع كتمانه، وكان رغــم الأرق والألــم، لذيــذا فكنت أستبقي طيفها، وأغذى اللقاءات الوهمية بحـــوارات وكلمـــات غــزل، واستنطق خيالها بكلمات مماثلة لما أقوله .. وقد أخذني حبها تماما فلم أعـــد أهتم بشيء ولا بإنسان أخر، فأهملت الزرع الذي زرعته فى حـــوش البيـــت وفى القصارى، والطيور التي أنفقت عليها كثيرا أقمت لها عشا عششا فـــوق

السطح . هجرت كل شئ، وأشعر برغبة دائمة في الغناء والابتسام لأي شئ وكل شئ رغم تسلل الخوف إلي قلبي بين وقت وآخر . خوف من فقدها ! خوف من فقدها ! خوف من انكشاف العلاقة ! خوف من المجهول ! لا أدرى

كنت حتى هذه اللحظة لا أعرف عنها شيئا سوى اسمها، أنها خريجة آثار، وصوتها وطريقة كلامها .. كلامها الشحيح ونظراتها خلال اللقاء الأول الذي لا أدرى الآن إن كان قد مر عليه دهر أم ثانية ولا مدته، ولكن لا يهم .. إنني بعثوري عليها أعرف عنها كل شئ،أو لا يهم معرفة إي شئ يكفيني فقط هذه المنحة الإلهية .. ألم تكن خطوط غير منتظمة أنا جيها في صهد عزلتي ووحشة إنفرادي ؟ ألم تكن هذه الخطوط منجاتي من التورط في زيجات عشوائية، وهى التي كانت أخاطبها وأنا مستلق، وأنا ماشى أرفع يدي وأدفع صدري كأنها غيث أستمطره؟

كنت مستسلما لخدر دغدغة آسرة، لحلم حب حقيقي مكتمل، أو تمن لتحقيقه، لاستبقائه . أشعة متفرقة أحاول جمع شتاتها، وكأنها نغمة تعانق أخرى، أحسست بجسد لين ودافئ يسرى حسه إليّ . التفت بهدوء وحذر . كانت نادية خلفي، مائلة بصدرها على كتفي من الخلف . ابتسمت كأنها ضبطتني متلبسا، وكان نفسها يفوح بالرغبة، وحولها رائحة عطر مغر . حاولت النهوض فدنت بفمها من أذني.

– ممكن خدمة يا باشمهندس ؟

قلت بصعوبة.

– طبعا ! أي خدمة !

همست وهى تدنو أكثر، وأحس حروفها المنكسرة تسرى في بدني

– ضيفة في مكتبي عايزة تشوفك

كانت سيدة تحاول الثبات على هيئة الأغنياء . مازالت تتهجى وتتشبه اللباس الغالي غير المتسق ولا الملائم لسنها أو جسمها الممتلئ . وقفت وسلمت بفرح وشئ من العتاب، ودخلت في الموضوع.

– محضر الفيلا .. فيلا مدام نوجه ..

قلت بانفعال.

– تانى !

وكانت قد حاولت معي من قبل دون لقاء بوسائل مختلفة . عرضت مبلغا كبيرا عن طريق نادية ثم تولت نادية إبلاغي بتهديدها وكل مرة تختم كلامها بأنها تريد تقديم النصيحة فقط كزميلة تحب زملائها ولكنها الآن تعرض المال مصحوبا بليلة حمراء معها هي !! هي البنت التي لم تتزوج ! هي الموظفة معنا، زميلتنا !

كانت أحلامي وطموحاتي ما تزال في عراكها مع الواقع . كل ما ألقاه في عملي وبين زملائي وأصدقائي، لا علاقة له بما أحياه في بيتنا، وكانت خطب الجمعة ترن في أذني، ودروس أبي وأمي عن الأمانة والصدق والعفة كثقل الميزان، فاحتدم الجدل العارم مع نفسي، بين هذا العرض، وبين ما أنا عليه من احتياج .

كنت منذ فترة أنظر حولي فأرى الأصغر مني والأكبر، قد بنوا وتزوجوا، أتساءل بكل دهشة وحيرة . أنا افعل ما عليّ وما ليس علي، فلماذا أظل مكاني وهم يتحركون، وانطويت فترة مع نفسي، ثم خرجت الى

الناس صامتا أتأمل .. لقد اكتشفت إنني ضمن عدد لا يتجـــاوز العشـــرة .. فراعنة ! نعم، من أصول فرعونية ! هكذا كان قد كتب أعضـــاء المجلـس المعينون، ورؤساء الجمعيات ومرشدو البوليس في تقاريرهم ! كل البلد قبـط أو مسلمون، ونحن مـــن أصـــل فرعونـــي ! وتفرغـــت أســـبوعا . وزادت ملاحظتي عمقا، فإذا أحد القبط كان قد سافر إلي أوروبا ثـــم عـــاد، وبعـد أسابيع ارتاح كل القبط .. ورش خشب وصيدليات وكنائس جديدة محصنـــة، وأمعنت في مراقبتي فإذا بزميل قديم خرج من الابتدائيـــة، لبـس الجلابيـة البيضاء والطاقية البيضاء، ودار في الموالد أعواما، سافر إلي الوالي وعـــاد هو الآخر، وغيره وغيره سافروا إلي الولاة التابعين وعادوا، وبعـد أســابيع انتعش حال المسلمين . إلا نحن العشرة !

تأتى عقود العمل، ونفاجأ بمن سافروا . بعد يــوم أو يوميــن نســمع باختيار خمسة أو ثمانية، وأذهب إلي مكاتب السفريات والشركات، والأفـــراد . يتم القبول، وأنتظر المقابلة الشخصية . دائما تنتهي كل مـــا ســـبقها هـــذه المقابلة ! كأنهم يعرفونهم بسيماهم ! من شفرة غامضة لم أفلح أبدا فـــي فـــك رموزها ! هي كلمات عادية واستفسارات ثم، سنتصل بك !   كانت مـــدام نوجه قد أقامت فيلتها الضخمة على أرض للرى على رأس أحد الرياحـــات وعلى مسافة ألف متر من كوبري الرياّحات، وعلى مسافة ألف متر فقط مـن كوبري محمد على، واستطاعت التخلص من محاضر التبويـــر والزراعـــة والطرق، وتم تحويل محضر الري إلي المحكمة .

هي الآن، تريد الإيقاع بي عن طريق نادية، وتغيير الجملـــة التـــي تريد حذفها سيوقع بي أنا، فكم دفعت لنادية مقابل هذا ؟ وألح عليّ الســـؤال

حينما نهضت متوترا، ودفعت يد نادية الممدودة نحوى بحسم قـاطع وازدراء فمضت نحو الباب صامتة . خرجت، وأغلقت الضلفة، فيما وقفـت نوجـه وفتحت أزرار البلوزة على صدرها وصرخت كل هذا في ثـوان وبـهدوء اربكني، وحينما امتلأت الحجرة بالزملاء والزميلات كنـت علـى المقعـد مذهولا، أحدق في وجهها الذي بللته الدموع لا أصـدق، وكـانت المفاجـأة الأخرى أمام إصرارها تقديم شكوى إلي قسم الشرطة وأخرى إلـي المديـر العام بالاعتداء عليها .

لم يتركني ياسر لحظة، ومدحت أقسم إن لم تتنـازل سـيفضح عـن أسرار مذهلة، وقنعت بأن المسألة ستنتهي، ولكنها قدمت الشكوى بالفعل إلـي المدير العام، وكتبت أخرى وهرولت إلي قسم الشرطة القريـب جـدا منـا، ونادية شاهدة فى كل مرة . لم استطع مواصلة اليوم ونادية أمـامي، واقفـة فى الطرقة تشرب بيبسى كولا، ومعها ثلاث زميلات من الإدارة . لم احتمـل تبجحها وتعريض سمعتها لمثل هذه الفضائح من اجل الفلوس مـهما بلغـت، ولكنها وقد عرضت نفسها على، تضـاءلت كـل المواقـف إزاء تصرفـهم المبهم، واستسلمت لارتعاشه جسدي ينفض الكابوس فلا يتبدد .

خرجنا من الإدارة مبكرين أنا وياسر بفضل قلقي، وحثي إياه لتقديـم أذن لمدة ساعتين، وبعد نصف ساعة كنا فى ميدان الخازندار . كنـت أريـد شراء فاكهة ولكن ياسر جذبني من بين زحام الأوتوبيسات المرصوصة فـي واجهة الموقف، والعربات المسرعة باتجاه ميدان رمسيس، وتخطينا شـريط الترامواى، ثم طريق السيارات القديمة من رمسيس، وأصبحنـا فـي حمـى المسجد الكبير الفخم . سرنا بجوار حائطه الممتد جهة الشرق نسـتظل مـن

حرارة الشمس اللافحة، وانحرفا يمينا، ثم بدأنا الصعــود .. هــل يمكــن أن تصادفنا على السلم ؟ قلت لنفسي، وانزعجت لأنني تذكرت أنه لم يحدد هــل تسكن نفس البيت أم لا ؟ لقد قال.

- جارتنا !

وللجار سبعة جيران فى كل الأنحاء !

بعد الغداء، اقترح ياسر خروجنا للتمشى، أو الجلوس فى مقهى، ولــم أكن أريد . كنت أترقب حضورها، وضايقني أن ياسر يعلم هذا ويتجاهلــه . جاءت أمه بالشاي وكان ما يزال يغسل يديه . قلت لها.

- شكرا .. إحنا بنتعبك !

ابتسمت وقالت

- لا يا أبني ! تعبك راحة !

ثم اعتدلت بعد اطمئنانها على استقرار الصينية وقالت

- الجماعة الجيران ناس طيبين .. دايما بناتهم يساعدوني

واستدرت جهة الحجرة، وفجأة .. الدقات الخفية، على الباب ! نفــس نقر الأصابع ! ولا أدرى كيف نسيت نفسي وهرولت إلــي البــاب أفتحــه، وتسمرت عيني فى عينها لحظات طويلة دون كلمة، رجعت خطوة للخلــف وتركتها تدخل، وبينما أتوجه إلي مقعدى، رأيت ياسر يمسح يده فى الفوطــة وينظر لأمه التي توقفت أمام باب الحجرة مبتسمة هــي الأخــرى . احمــر وجهى، بينما وقفت هي بجوار أم ياسر خجلي . تكلمت معها قليلا وأقبلــت . وقفت خلف ياسر ممسكة حافة مقعده العلوي.

- أهلا وسهلا يا باش مهندس !

وسارع ياسر.

- سامي بايت معايا ليلتين !

ولمحت في عينيها سعادة وأنا أرد متأخرا.

- أهلا وسهلا .

كانت شقة ياسر واسعة وحوائطها مرتفعة، ورغم أنها من الأسر المتوسطة، ألا أن بقايا الأثاث العربي القديم النظيف، وصور أسرته المعلقة على الحوائط ونظام المعيشة، تشي كلها بعيشة مريحة، وبأن ماضيا طيبا كان لهم، ولم تزل أثاره باقية .

سألتني سوزى عن النباتات وعن حدائق القناطر، وسألتها عن الآثار وعظمة الفراعنة، وطلبت منها الجلوس وأنا انظر لياسر كي يشجعها، ولكنها تعللت بضيوف عندهم ووعدت، بالمجيء ليلا .

(يوم ويومين وجمعه وشهر وشهرين ..) وإذا الشجر الناشف يورق، والطرق الوعرة تتدانى سهلة، وتحط الأحلام الحيرى، تعرف الروض والمستقر، وأشارك صاحبي وزميلي حجرته، ونبوءتي بالفرح الغامر تتحقق . أزور الأهل وأبيت، وبالشوق أعود إلي عشي، وكان الصيف ..

لم نخرج كما أراد ياسر، ودخلنا للنوم، . نام هو، وظللت محدقا فى السقف غير منتبه لشريط فيروز الذي وضعته فى الكاسيت، وفى السادسة استيقظ ياسر، ونادى على أمه فلم ترد . خرجنا إلي الصالة، ثم استأذن لأخذ حمام، وكانت تنتحب فى السماء شمس الغروب، وجاءت سوزى . قالت

مبتسمة أن أم ياسر عندهم تحت، وإنها طلبت منها معرفة إن كنا استيقظنا أم لا ؟

كنت واقفا أمامها، والشقة تهتز بي، ولا أدرى كيف وضعت كفي على كفها، ولا كيف سارت معي إلي الحجرة . لم يكن بداخلي رغبة في فعل شئ، بل مجرد التحقق من وجودنا معا بمفردنا، وخلف الضلفة الثابتة وقفت تتأملنى ثم تغمض عينيها وأنا التصق بها، اقبلها بهدوء أولا، ثم اندفعت أحوطها بذراعي وأتسلق عنقها إلي الوجنتين والعينين و الجبهة، وأعود أهبط المنحدر إلي .. إلي، ولأول مرة أكتشف أن لها ثديان، وحول عنقها سلسلة متدلية إلي الفتحة الفاصلة بين النهدين، وكأنها تعوقني . سحبتها لأعلى، وإذا ما هذا ؟! تراجعت للخلف مذعورا ولا أدرى أن كنت نطقت أم لا، وصورة الصليب الذي أفزعني تتراقص أمام عيني، هل رأيت دما تساقط !، بينما تفر هي إلي الخارج، وصوت مياه الدش يزداد كأنما تهطل السماء، تصاحبها الموسيقى والصوت الحاني.. تغريد منطفئ لطير محبوس .. لمشوار صغير بين أسوار عالية .. وصوت ياسر يسبق صوت فيروز ويأتي من تحت المياه، ومن خلف الباب الموصد كله أسى

(يا رفيقي، نحن من نور إلي نور مضينا ..، ومع النجم ذهبنا، ومع الشمس أتينا ..)

مادت بي الأرض فارتميت على السرير، أحس بالخيبة والإحباط، وأرى حلمي يتبدد في لحظة، وما كنت اخطط له ينهار أمام عينيّ المدهوشتين فأشعلت سيجارة، وكانت تنوح (يا ليل الصب متى غده ..) فأغلقت الكاسيت، وقمت إلي البلكونة. انحنيت على سورها انظر لأسفل غير مصدق

لم تستقر الحوائط فى أماكنها، ولم يقر قلبي . التقطت أشيائي ونزلـــت أردد لنفسي : إنني خدعت ...

عدت إلي طريق المسجد وسرت شمالا حتى ينقطع سيل العربـات، وعند سور كنيسة العذراء، لاحت لي سوزى خيالا يرق فى أفقي المحمـــوم، وشممت لأول مرة رائحة غريبة كنت اسمع عنها من بعض المســلمين بعــد الكلام عن تسامح النصارى ونصاحتهم (بس لهم ريحه غريبة !) وأجدهـــا عالقة بأنفي منفرة، بل كان ثدياها مدهونين بالزيت، يلمعان، وينزلقان تحــت شفتي قبل أن أسحب السلسلة واكتشف الصليب متراجعا ..

كنت قد سرت كثيرا، وعند تقاطع أحد الشوارع مـــع شـــارع شـــبرا، عبرت إلي الجهة الأخرى، وعدت إلي الخازندار القـــاضي الشـــهير الـــذي اغتاله الأخوان فى نهاية الأربعينات، ثم دخلـــت شـــمالا باتجـــاه مستشـــفى الساحل، ولا أدرى كيف وصلت إلي كورنيش النيل ! وتذكرت ياسر الـــذي تركته فى الحمام يجفف جسمه ويدندن من الذاكرة بعد إغلاقي الكاســيت . لا بد انه سينزل إلي شقتها يسأل عنى .

هل ستقول له شيئا، ربما دخلت غرفتها أغلقت الباب وانكفـــأت تبكـــى كما يحدث فى الأفلام . هل كـــانت تظـــــن .. ! لا يمـــكن ! فـــهي فـــى وضعـــها هـــذا، وحســب عـــلاقتي بيـــاسر تعلم من أنا ! وأمي تقول لي

- أنت بتحب يا قلبي !

وياسر الخبيث طوال الوقت لم يتكلم . لم يلمح من قريـــب أو بعيـــد، ليتني أغلقت عليه الباب ليموت فى الحمام ! .

كان الأمر مريعا لي، لأحلامي وطموحاتي وتحققــــي . فـــررت مـــن المنطقة كلها وعدت إلي بيتنا متعبا للغاية، وشعرت بعيونــــهم تتبعنــــي وأنــــا أصعد السلم بعد إلقائي السلام بسرعة، أخاف أن تستوقفني أمي لأي ســــبب وتسأل عن المأمورية . ليست كذبتي بشأن المأمورية هي ما يخيفنــــى، بــل مجرد الحديث معي وأنا فى هذه الحالة، ورغبتي الشديدة فى عـــدم كشــف شئ، ويبدو أنها اكتفت الليلة بدهشة خفيفة، وتلقت الثانية صباحا وأنا خـــارج للشغل فأبادرها على غير المعتاد بالتحية، إما دهشتها الكبرى فكانت مســـاء نفس اليوم حينما دخلت بطعام العشاء وسمعتنى أقـــول . انتصبـــت معتدلـــة تتأملنى ، وعلى البعد لاحت إشراقة مؤجلة، بانت فى عينيها مـــترددة، ولـــم تضئ الوجه حتى سألتني :

- بتتكلم جد !

وحالما سمعت الإجابة، تهلل وجهها وابتسمت، ودعت لي/ ثم هبطـــت مسرعة تخبر أبى وأخوتي .

لم يبد على ياسر، حينما دخل حجرة مكتبي أي قلق (إيه يـــا أســـتاذ ! تمشى كده من غير كلام !) وغاظني استهتاره الواضح الفـــج، ولـــم أنـــس رؤيتي له ولامه يبتسمان وأنا استقبل سوزى عند الباب.

- حتى أمك !

نطقتها هكذا ببدائية خشنة، وراح يقســـم أنهما كانا يظنان أنى أعـــرف أعرف ! وأشحت بيدي غاضبا وقمت الى النافذة غضبانا أســـتغيث بـــهواء بارد، وتوقعت انصرافه، ولكنه جاء بجانبي ولمس اكتفى معتذرا، ثم دفعنـــي بضحك.

- بس أنت برضه بتحبها !

وضحك فضحكت برغمى ونظرت فى عينيه، وتغير صوتي.

- تفتكر ؟ .. أنا فعلا لسه بافكر فيها !

وكأنني كنت انتظر مساعدته لإيجاد حل، كنت أريد من يشجعني، فأنا بالفعل لم أكف عن التفكير فيها، ودائما تغلب صورتها الجانب المسيحي، وأصبح كل كلامي عن النصارى يتلاشى، وأفكاري الخاصة والمنقولة تتراجع واستبدل بالنصارى المسيحيين، وأنس الزيت وأذكر مريم، حتى أنني شعرت بصدمة أمي القوية أشد وأعنف من كل ما مضى وهى تدخل مبتسمة تقدم نتيجة بحثها وتعبها لانتقاء العروس الملائمة . قلت خالي الذهن .

- عروسه إيه ؟! مين قال إني عاوز أتجوز ؟!

تغير وجهها تماما، وتحجرت نظرتها المشدوهة ثم ضربت على صدرها.

- هو لعب عيال يا بنى !؟

وبدت كظيمة، تتأملنى صامتة ..

لم أنم تلك الليلة، وصور من ترشحهن تفر أمام صورة سوزى الراسخة كأنها بشحمها ولحمها تقف فى الحجرة، تبتسم تلك الابتسامة المشوبة بالحزن، مختصرة إلي حدا ما كابتسامة الموناليزا، تكمن بها أنوثة هادئة الظاهر .. جبهتها الرحبة، وعيناها الواسعتان جدا يطل منهما ذلك الذكاء المثقف ممزوجا بالذكاء الأنثوي الفاهم والمدرك، والبياض الخالص يمنح التسامح المسيحي كأنه عطف الزوجة والأم الحبيبة .. أليست هي كل

ما أتمناه ؟ فما هي المشكلة ؟ لأنها مسيحية ؟ ولكن يجوز للمسلم الزواج مـن كتابيات ! وهل ستتحول إلي الإسلام ؟ وهل تقبل أسرتها ؟..

ليس البحث عن إجابات هو المشكلة، بل اتفاق الإجابات مع ما أريـد ! ثم أسرتي أنا ! وفرحت لأن الإسلام لم يحرم الزواج من كتابيات، وأعجبنـي التسامح الإلهي والفهم العميق لطبيعة البشر . جميل جدا أن يمنحنا الله هـذه المساحة فلا يفصل روحين تآلفا .. ومن حكمته وضع هذه فى كتاب مبين .

أربعة أيام تغيبتها عن العمل، اصحو الليل مسهدا، وأنام إلي مـا بعـد الظهر، والعصر أخرج للتمشى، وليلة اليوم الخامس كلمني أخي ولم أصـوح له، وجاءت أمي بالطعام ونزلت بعد أن تأملتنى بحيرة .

قرب الفجر، كنت قد تعبت تماما، واكتشفت الأكـل المنسـي علـى الترابيزة، ومطفأة السجائر مترعة بأعقاب ورماد، وبمجرد رؤية ياسر لـي فى المكتب، اكتشفت ما أنا عليه إذ حدق فيّ متسائلا :

- وصلت لأيه ؟!

وقـد أبنـأ شحـوب وجهـي عـن أرق الليـالي الماضيـة . قلـت بلا انتباه.

- مش عارف !

ضحك وقال بثقة.

- يبقى نتغدى عندي ..

كيف لخص هذا الثعلب كل ما أصبو إليه ؟ وبهذه السرعة وهذه الدقـة لم أرد، واكتفيت بهز رأسي، بل انه وصل لأبعد من هذا، فبعد الغداء، نزلـت أمه، وبعد قليل تعلل بشراء حاجيات البيت وخرج .. ظللت وحدي أخمن مـا

أنا فيه، قلبي يرجف، وعقلي يكاد يشتعل، وإذا بالنقر على الباب .. هو هـــو نفس النقر، هي هي نفس الأصابع، ولما فتحـــت البـــاب واجـــهتني بعينيـــن مجهدتين لم تفارقا عيني حتى انحرفت قليلا لأغلق الباب، واستدرت فإذا بـــها تطوقني باكية .. لم أتكلم، وهى لم تتكلم . قالت خلال نظرتها الطويلـــة كـــل شئ .. نظرة مختلطة من الإشفاق والحنو والوحشة . محت دموعها وجلسنا.

- أسبوع !

قالت بتعجب كأنه دهر، ثم بدأت الابتسامة تتألق فى عينيها .

- وحشتك ؟

- جدا .

- ما يجمعه الله لا يفرقه إنسّان ..

- بتحبى حد غير فيروز ؟

- وقد فهمت ما اعنيه، قالت بلوم ...

- وأم كلثوم وعبد الحليم !!

- أنا بحب قوى " المسيح يصلب من جديد " و..

وكأن كنت أتحداها أو أسبر أغوارها، ردت بنفس اللوم، ولكن هـــذه المرة مصحوبا بضحكة متسامحة .

- أنا بحبها كلها موت ! وكمان " الثلاثية "

- وكأنني أصبحت فى مأزق حقيقي، غيرت وجهتي

- بما انك خريجة آثار، إيه رأيك فى كلام بعض القبط إن كل ما في مصر هو آثار الفراعنة ؟

- قالت باحتجاج واضح

- لا طبعا ! أهم ما فيها الناس ! ثم حدقت فى عيني (أنت !) .

- ما الذي أريده بعد ؟ . قلت لنفسي حائرا

- موافقة انك ... ؟

- وزغت بالسؤال .

فهمت ولم ترد . تأملتنى ثم تراجعت، وكان حوار عينيـــها المتمـــاوج بيـــن الأسى وبين الفرح أبلغ من أن أتغابى، وتنهدتُ .

- تشرب حاجة ؟

- موافقة على إعلان ...

وكان هذا السؤال بمثابة القنبلة التي أخبئها .. أخاف من طرحه، أخاف مـــن رفضها، أشفق عليها فى الوقت نفسه قالت بهدوء.

- ولا تشغل بالك ! المهم إننا أتقابلنا !

- وأهلك ؟

وكأني لم أسأل ! . لم ترد، وقامت إلي المطبخ . أحسســـت بفـــرح غـــامر، وقمت وراءها . كانت تصيب الماء، والضفيرة المنزلقة جهة اليسار أتـــاحت لمؤخرة العنق من الخلف التألق . انحنيت برفق وقبلتها . وضعت ما معــــها بسرعة وأراحة الكفين على كفيّ اللتين التقمتا النهدين . لمستهما أول الأمـــر فاضطربا . تبدلت وداعتهما .. انتصبت الحلمتان تطلان باستطلاع ودهشـــة، مستنفرتين .. واتقدت نيراني فاحتويتهما هائجين تتنابهما العواصف والرعـود ارتجفت قليلا، ثم سكنت فى حضني مغمضة، وقد اشتد اللـــــهاث اســـتدرت تقبلني بحرارة، وبدت ملهوفة ومنفعلة، حتى إنها كانت تلـــم نهديـــها وهمـــا

يفران .. تسلطهما إلي صدري وتضغط فاضغط وتتأوه لذة فأضع يدي علـــى كتفيها .

– كفاية

خرجت إلي الصالة غائمة .. جاءت بالشاي وطبقين جاتوه . وضعـــت الصينية على الترابيزة وجلست على ركبتي تطوقني بقوة . كانت بشـــعرها المرسل مثيرة حتى أطرافها وما يحيطها، وهى الآن بضفيرتها، تبث إثاراتها من الداخل .

– خلينا على طول

– أم ياسر تطلع !

– تطلع !؟

– حتَروح ؟

– طبعا

– نتقابل عند الجامع بعد ساعة

– ماشى

شربت نصف كوب الشاي، وأكلت نصف قطعة جاتوه، ثم وضعـــت النصف الآخر فى فمي وقبلتني على جبهتي ونزلت .

وفكرت لأول مرة فى إجراءات الفرح . لم يكن فى ذاكرتـــي ســـوى أشياء صغيرة عن الترتيبات والاتفاقات، وكان الشيء الوحيد الـــذي أذكـــره هو يوم تجهيز أخي ..

كنت غلاما، وبكيت كثيرا كي تأخذني أمي . خرج أبي أمامنا بعـد إن وضع الفلوس فى جيبي الصديرى ولبس أخر فوقه، ثـــم أســـقط الجلابيـــة

عليهما . فى يده عصاته، وخلف أمي وخالتي وواحدة قريبـــة لنـــا وقريبـــة لزوجة أخي . سرنا فى شوارع المدينة . على الجـــانبين محـــلات الذهـــب والقطن والنحاس، وزحمة لا تنفض .. قالت أمي وهى تمعن فى وجه فتـــاة كالقمر.

- بسم الله ما شاء الله ! عروسه تشرح القلب !

- خطفت الآخر نظرة وردت.

- وعروسه ابنك قمرين يا روحي !

- ربك والحق أنا خايفة من أمها !

- أنت مالك بأمها !

وأحس أبى بتصاعد الحوار فالتقت بنظرة منذرة أراحت قريبتنا .

- نتفرج بقى إن كنا حنشترى خلينا نروّح !

ولم تكف أمي عن مضايقة الباعة لتخفيض السعر .. تتحسس الحلل النحـــاس الثقيلة وتقطب.

- دى خفيفة قوى !

والقماش.

- مش قد كده

والذهب غالى، وقد تعبت أنا من الوقوف الطويل والمشى الكثير، أدخلنا أبـــى مطعما أكلنا الفول والطعمية وخرجنا إلي المنجد، وقرب العصر عدنا بعربـــة بها ألحفا ومخدات ومراتب وحلل وأقمشة، وفى جيب أبـــى علبـــة مكســـوة قطيفة حمراء بداخلها اسورتين ذهب وحلق وكردان .

طلعت أم ياسر مبتسمة فــأربكتنى وبــددت أفكــاري . قــالت أن أم سوزى تريد رؤيتي . كنت اسأل نفسي قبل دخولها . أين أتزوج .. عندنــا أم فى شقتهم ؟ وهل سأخبر أهلي الآن ؟ هل أتزوج سرا ؟ وجاء ياسر فأومـــا لي بطرفة عينه وهو يجلس، ولما قامت أمه قال (أوعى تنسى الميعاد) .
هل بينها وبين ياسر شئ .. ألا يمكن إن يكون فعل معها مثلما فعلت ؟
لماذا تبوح له بأول ميعاد بيننا ؟

وهزني ضاحكا بدفعة فى كتفي فانتفضت واقفا . دارت بــي الشــقة، ويدي المشيحة فى وجهه تصلبت، والصينية التي تحملها أمه بأكواب الليمون وقعت . خرجت، لم يبق فى ذهني سوى نظرتيهما المتحجرتيــن تحملقــان نحوى، ولسان المربوط فى فمي المغلق لا يجد الريق يرطبه .

سرت أتخبط فى الشوارع، تجتاحني أفكار ملتهبة . أمها تريد مقابلتي طبعا سترفض وتطلب منى إقناع سوزى باستحالة الزواج، وأنا لن اقبـل، ولا بد سنتعارك . ولكن المهم الآن علاقتها بياسر ! ما مداها ؟

كنت أخرج من حارة وادخل أخري، أنهى شارعا وأبدأ أخر، وكلمـــا صادفتني كنيسة، رأيت صليبها يقف بعناد كأنما يخرج لي لســـانه، وكــأني أرى كل الكنائس فى لحظة واحدة تفر أمامي ثم تعود متآزرة كأشباح تكشـــر حينا وتتراقص أحيانا ..

أخيرا شاهدت على البعد مئذنة جامع الخازندار فـــارتحت، ووقفــت أمام محل العصير المجاور . شربت واتركنت على السور الجانبي للمســجد، وعندما رفعت رأسي هناك عند بائعة الكتب فى الجهة المقابلة، رأيتها : تقـف مع شاب قلق وذكى وكثير الحركة، وفتاتين فى مثل عمرهـــا . هــى إذن لا

تكتفى بياسر ؟! وحسمت ما كنت أفكر فيه . تحركـــت صوبـــها مباشـــرة . وتخطيت شريط الترامواى وتوقفت ابحث عن ثغرة بين السيارات المندفعـــة، ولمحتني فأشرقت ! عيناها ابتسمتا، وزال ركود الوجه . فى نفـــس اللحظـــة قبّلها الشاب وانصرف مع الفتاتين، ولاحت اكثر من ثغرة فلم اعبر، وإذا بـــها تندفع بين العربات التي توقفت وأطل ركابها يبتسمون لمشهد العناق .. هـــي تطوقني وأنا فى تحولي من التحفز إلي العراك والانصراف .. إلي الحيـــدة الكاملة .. عينان باردتان، ويدان مرتخيتان دون حياة .

يا لهذه الفتاة النادرة، ويا لحلمي المدهش يتحقق .. فتاة أيقنت بعـــدم جدوى البحث عنها لخلو الحياة من مثلها ! قرأتنى ولم تزل فى عنـــاقي ! . سحبتْ يدي بحماس وحرارة، نفس فرقة الحب وفرحـــة التحقـــق . أوقفـــتْ تاكسيا وركبت جوارها منوما، ونزلنا أمام كازينو علـــى النيـــل، وقبـــل أن تسحب الكرسي لأجلس، وهو ما كان يجب أن أفعله أنالها، مســـحت علـــى جبهتي .

– كل نار تصبح رماد إلا نار أية ؟!

– الزفت

– وقهقهت، وجاء الجرسون قبل انفجاري . وقالت :

اللي كانـــوا معايا، جرجس اخويا ولندا أختي، وديانـــا، صديقـــة جرجـــس ألمانية .. واما خوفك من مقابلة ماما فلازم تتـــأكد إنـــها حتمـــوت عشـــان تشوفك، من كلامي عنك وكلام ياسر ..

– بالمناسبة ايه أخبار ياسر معاك ؟

– سكتت قليلا وتنهدت !

أنا ممكن أتغابى وأسألك إيه المناسبة ؟ أو أرد بسرعة وأقولك، عـــادى !. لكن لأني فاهمة أفكارك حقولك تانى، ياسر شخص ممتـــاز وعلاقتــي بـــه علاقة أخ، وأكثر من كده احلفلّك ما فى إنسان باسني غـــير أســـرتي طبعـــا وصديقاتي، وأنت، وما فيش إي علاقة بيني وبين إي شـــاب، ولازم وأنـــت بتحلم بي قبل ما نتقابل كنت بتتمنى ده، واتأكدت منه ! صح!

هل كانت معي فى حلمى وأنا إناجيها من بين عشـــرات الفتيـات ؟ وهل تعلم كل أحلامي فيها ومعها ؟ الحب بالقلب والعقل ! تعي كلمة حـــب التي ضاع معناها ومبناها فى أيامنا هذه !

– على فكرة

قالت مبتسمة ومتسللة إلي حواري الداخلي .

– كل وقـــت حلمـــت فيه بيّ، كنت بحلم بك، برسمك وانفخ فيك الروح أكلمك .. أناجيك أناقشك .. أحب عقلك وشكلك وجسمك .. ضعفك وقوتك، روحك !

– كلميني ..

كانت لجدي شركة، طورها أبى وانشأ لها مصنعا، وجعـــل لنـــا حيـــاة ميسورة . أممت الثورة الشركة، وسافر أبى لطلب المساعدة ولكن أحدا لـــم يساعده .. كان الجميع يخاف .. مات أبى وتسرب ماكان لدينا، لهذا ســـتجد جرجس يكره عبد الناصر والثورة، ينقم على الإصلاح والإيجارات وتصور إن لنا ثلاث شقق مؤجرة لا نحصل منها إلا علـــى مصـــاريف لينـــدا، ولا نستطيع استعادة واحدة لنا !

أنا اختلف كثيرا عن أخي وأختي، أنا لا اكره الإسلام، ولكني لا أعرف عنه الكثير ..وجرجس يشيع بيننا الخوف من تطبيق الشريعة .. ليندا متأثرة جدا بجرجس ، لكنها طيبة ..

لم أشبع من سوزى أبدا . غادرنا الكازينو بعد منتصف الليل، ولولا أن جاء الجرسون كابحا جماح ثورته لما خرجنا . أقبل مهر ولا ممتقع ووقف معتذرا .

– بعد إذنكم لازم نقفل .. تعليمات ! – وبدا على وجهه الأسى – تانى قنبلة تنفجر في كنيسة والدنيا مقلوبة !

هل ظن إنني مسيحي ؟ وهل قال هذا لكل الجالسين ؟ نظرت لسوزى فرأيت على وجهها علامات استفسار ودهشة، لكنها ليست متوترة ولا غاضبة بالقدر الذي توقعته . أوصلتها للبيت، وأصرت أن أبيت مع ياسر الليلة، وقضينا اليوم التالي بين المطاعم والكازينوهات وزرنا المتحف، وقالت بأن ليندا كانت تتكلم عنى مع ماما بإعجاب، وضحكت(ماما فتحت شراعة الباب وأنت نازل شافتك من الضهر)

– أنا كمان نفسي أشوفها .

– حتيجى أمتي ؟

– بعد يومين ثلاثة

نعم هي سوزى التي حلمت بها، هي الرقيقة البسيطة، الجميلة، المثقفة، الواضحة، هي الأنثى، وهى الحلم !

لم أكن أريد العودة إلي العمل بقية الأسبوع، ولا التحدث مـــع أحـــد .. فقط هي . اجلس بمفردي أتأملها وأكلمها، أقبلها أحاورها، هكذا حتى ألقاهـــا بعد يومين ..

كنت نسيت قضيتي . ذكّرتني بها نادية وهى واقفـــة وســـط زميلاتـــها يحتفلن بحصول مدام نوجه على قرار البراءة، وكدت أهرول إليهن، أفـــرغ انفجاري وتوتري، ولكنى تصلبت مكاني وهى تغمز لهن.

الاحتفال الجاى بعد القضية الثانية ! قضية الشريف العفيف !

والتهبت حواس، وضحكاتهن الخليفة تعلو وتكبر متناثرة مثل حطام زجـــاج لامع ومدم .

نادية هذه فكرت فى الارتباط بها اكثر من مرة، وقلت لنفســـي، معـــها دبلوم تجارة وتعمل معي، إذا تحسنت الأحوال يمكن تقديم استقالتها بســـهولة وتتفرغ للأولاد، وهى من جانبها كانت حنونة وكريمة . كـــل يـــوم لديـــها سندوتشات الجبن الرومي والبسطرمة والمربى بالقشدة، ومظـــهرها اللائـــق يشي بانتسابها لأسرة ميسورة ثم إن لديها قدرات من الشجاعة يلعثـــم ريفيـــا مثلى حتى لو كنت مديرها .. ولا أنكر أيضا إنني فكرت فى بعض زميلاتـــها بالإدارة، ولكنها كانت أكثرهن جذبا للأهتمام ! ولكـــن الأخريـــات ! لمـــاذا شهدن معها ؟!

كنت دائما، ألمح فى عينيها شبقا لم استطع تأويله . كان فـــي نظـــري مجرد نزق ما بين الصبا وبين الشباب، ولم أفكر مرة بذخ الصرف اليومـــي لهن إلا على أنه طبيعة الفتيات اللاتي يعملن للحاجة، بل رغبة فى العمل .

حل الصمت على بيتنا . صمت كله توجس ورهبة، محـــاط بنظــرات الرجاء والترقيب . كان أبى على الكنبة ممددا وعليه ملاءة خفيفـــة، وعلـــى الأرض أمي ونساء جارات لنا وقريبات . أخى الكبير فى الصالة ومعه ابـــن خالتي الذي وقف وصافحني، لمحت أخي يدير وجهه إلي الناحية الأخــرى . وقفت على العتبة مأخوذا، أحس بحرج ورعشة لوم خفيف تهزني، وعيـــون النسوة تحاصرني . أو مأت بالتحية، ووقفت قبالة وجهه أبى . انفتحت عينـاه المجهدتان بهدوء وكادتا تتحولان عنى، لكنهما آنستا تشبثى المرتجف فتوقفتـا على جبهتي، ورضيت .

لم يكن أبي يقربني منه كثيرا، ولكنه لم يبعدني، وقد قنعت – بعد فـــترة من التعجب والارتباك – بتلك المسافة الهينة المرنة بيننا، أتلقـــى التعليمـــات والإنذارات بغضبة منه، والتقدير أو الارتياح بانبساط الوجه ورفيف ابتســـامة في العينين، ثم ارتقيت حتى صرت أفهم ما يجول برأسه وما يجيـــش بقلبـــه خلال التفاته صغيرة ألمح خلالها سطح عينيه .تعبت في البدايـــة مـــن هـــذه الطريقة، وبعد إدراكي لها أحببتها، واكتشفت أن أمي وأخوتي يتعاملون بـــها من زمن .

أرادني أبى بالقرب من منبتنا . من أساس نشــــأتنا الحاليـــة .. فـــدان الإصلاح الزراعي الذي تربينا عليه أنا وأخوتي، وأكلنا من خـــيره .. كـــان ضمن مساحة شاسعة ملك لسيدة إنجليزية تدعى مارى وأختها إيليـــا، وبعـــد التأميم، وزعت على الفلاحين المعدمين، وقد بنى أبى على قيراط منه عشـــة بالطين ظلت تكبر عاما بعد عام حتى صارت زريبة كبيرة لمبيـــت البـــهائم،

وأمامها مربط للمواشي بالنهار (لو تعلم سوزى التي تكره أسرتها الثورة والتأميم أن هذه إن هذا الفدان هو ما أجلسني فى المدرسة والجامعة !)

ظللنا طول الليل ساهرين، وقبل الفجر، صعدت روح أبي .. تقدمت أولا أمي لست أدرى كيف تبينت هذا، واخترقتنا ونحن نتواجه مقرفصين . انكفأت على ركبتيها عند رأسه، وأخذنه بين كفيها . انفلت دمعها مع أهه طويلة، ثم أرخت جفنيه وتشهدت، وكنا قد وقفنا خلفها بدافع خفي ..

أصدر أخي الكبير تعليماته بتجهيز الدوار، وإحضار الخشبة وفتح المقبرة، وجاءت أمي بطبق جبن أبيض وعيش بتاو ، أصرت أن نأكل جميعا قدر المستطاع، وبعد ساعة امتلأت الدار بالناس .

بعد الخميس الأول، افتتحت وصية أبي بصلاة الجمعه . سمعت خطبة أطاح قائلها باللغة . مجرد تحذيرات من عدم الأمانة وإتقان العمل، وكان هو، والتراب على الحصير البلاستيك والكليم دليلا على أن الفعل شئ أخر وكنت فى جمعه سابقة استمعت إلي خطبة حاولت كثيرا الإنصات لها، ولكن الدكتور الأزهري بخيلائه من فوق منبر مطهم بالنقوش والزخارف، ينتصب بأبهة أبتدعها الفاطميون، ظل يسب الشباب وطيشهم، وحود إلي الرحلات والكرة والجرائد والمجلات والأغاني فجعلها أساس دخول الشيطان النفس وتزيينه الموبقات، ثم لم لباسه الفخم وهو يأمر بالدعاء وقعد، يرفل فى حومة النظرات مشدودة (هذا المفوه لا يتورع عن أكل البشر أحياء ! لو عاملته سوزى لمزق صورة الإسلام الجميلة التي لم تكتمل بقلبها) ولكنه على كل حال حافظ على اللغة !

ركبت المعدية إلي البر الغربي، ورحت الغيط .. العشة كما هي، والطريق الذي توسط مستطيل الحقول أصبح شارعا . مبان مكدسة على الجانبين، دورا واحد بطوب لبن، وأطواف جله وحطب، وعيال كلهم طين .

كانت عزبة شرف قائمة هناك، أربعمائة فدان قطعة واحدة، مقسمة على الأوراق باسمه واسم زوجته وولديه، وراعني السور الشائك المرتفع والطويل جدا حولها وخط الأشجار المجاور للسلك، والطريق الفاصل بين ارض العزبة وبين ارض الإصلاح .. لا بد أن سوزى تحبذ امتلاك مارى وايليا لمثل هذه المساحة ! والله عندها حق ! فقد كانتا تعاملان الناس افضل من كل شرف مصري !

وقفت لحظات على رأس الغيط، وكان مقسما إلي ثلاثة أقسام، ولكن هذا الغيط وهو ثمانية قراريط، كيف اتسع هكذا ؟ مساحته تزيد عن الفدان، لا حدود، ولا فواصل ! ..

وأطل أخي مكشرا من جانب الحائط الحطب الشرقي للمربط، فتقدمت قليلا فيما تناول الجوزة من رجل يجلس أمامه .

- جاى تورث ؟

- ورث إيه ؟!

- وانبرى الرجل الأخر يفهمني

- إحنا بدلنا الأرض، وطبعا دا حق أخوك ! أنت تعلمت وكفاية عليك .. وعلى العموم إحنا سألنا المشايخ وسألنا العلماء الكبار، والدكتور قال ما فيش حاجة.

لم استطع البقاء طويلا، وعندما هممت بالانصراف، بدأت أقدام تقبـل، وازدادت زحمة المصافحة والأسئلة، والحوارات التي مـا إن تبـدأ حتـى أنهيها، فالجميع يحاولون الظهور بمظهر السذاجة، يقنعونني بصحـة مـا حدث، وداخلهم قناعة عجيبة بأنهم أذكى منى، وأنا الأبلـه .. مـع انـهم لا يشربون معه المعسل !

عقب الضباب الذي خلفه رحيل أبى، ألحت أمي كثيرا فى موضـوع زواجي، ولكنها الآن مسلحة بالدموع القريبة، وأنا هش بما لأصـابني مـن ركود الموت وخلو الحياة، فليس ثمة شئ سوى التذكر واستقبال الأقـارب، والمشى بين غيطان لا أملك فيها شبرا .. قلـت في أخـر محاولة للإفلات

- لن أتزوج فى مقعدين ! لازم شقة بالمسلح

- قـالـت بعـد لحظات تأمل.

- وماله ! ربنا يفرجها .. شوف العروسة

- فيه واحدة من مصر

استرجعت انطلاقها وقالت مضطرة.

- خلينا فى البلد احسن !

وطالت المناقشة وأنا أحاور دون الوصول المباشر إلـى غـايتي .. أخـيرا، استجمعـت بعضا من عنادي وسألتها كأنني لا أقصد شيئا محـددا

- هو ممكن المسلم يتجوز مسيحية ؟

ضربت صدرها، وفغرت فاها والعينين، وعلامتي استفهام وتعجـب ملأتا الجبهة.

- ياخـرابى !.. مسيحيـة !؟ دا أنا أسيب البلد ! أموت ! أنت تجننت ؟!

- ولحقتها بسرعة.

- دا سؤال مش اكثر !

ولكن ما استقر فى قلبها قد استقر !

الخميس الثالث لأبى، جاء ياسر بعد الشغل، وفاجأني بخبر عثوره على الشقة بالقرب منهم، وما يشغلني صمت والدة سوزى، فلم تفصح حتى الآن عن رأى، وكذلك جرجس.

- من منهما يحرك الأخر ؟

ولندا هي الوحيدة الموافقة بتردد.

- ولكنها تكره فكرة إشهار الإسلام، وتبدو مترددة

ذهبنا لرؤية الشقة، وحدثني ياسر طول الطريق عن أرق سوزى وسؤالها الدائم عنى.

- كانت تتصل بالمكتب مرتين يوميا !

ورغم لهفتي لرؤيتها، طلبت معاينة الشقة أولا ..

شقة واسعة فى بيت قديم ومريح، وأجابني ياسر الإيجار والمقدم (لو بقى لي قيراط من ارض أبي !) وبعد الغداء استأذنت لزيارة سوزى لأول مرة . كنت وجلا مدفوعا باشتياق جامح، وتعللت بتقديم الشكر لمواساتهم ومفاجأتها بالشقة، وانفلت من نظرة هادئة وغامضة لأم ياسر ونزلت . ضغطت زر الجرس ووقفت محدقا فى الشراعة لا أستطيع رفع رأسي وأم ياسر ترمقني من أعلى . انفتحت الشراعة قليلا، والتقت عيناي بوجه خمسينى مريح، لم تتفوه وظلت محدقة فى وجهي، واتسعت فتحة الشراعة المواربة وشبت تنظر إلي جسمي كله، وكان شيئا مربكا .

- مساء الخير

لم ترد . فتحت الباب، وتصلبت أمامي تلتهمنى من أعلى لأسفل، راح لونها وغابت عيناها، ثم ارتمت على الأرض، وفى لمح البصر وجدت ياسر وأمه خلفي وأنا منحن على هذه امرأة أحاول فهم ما حدث، ولكنهما حملاها ودخلا بها إلي السرير، ويدها ممدودة نحوى .

دخلت الصالة، وسمعتها تردد.

- مش معقول ! ..

ثم تشكر العذراء، وطلبت منهما مساعدتها على الوقوف .. اقتربوا منى ومازالت دهشتها متسعة، تتأملنى غير مصدقة، وانهارت على كنبة الأنتريه . هرول ياسر فأتى بكولونيا وشممها، ودخلت أمه المطبخ وجاءت بشيء لزج وضعته على شفتيها حتى انتبهت.

- أنت يا ابني زميل ياسر ؟

ورد ياسر.

- أيوه، المهندس سامي ..

والتفتت إلي أم ياسر تسألها عن أسماء قديمة معروفة لهما، وبدأت أتأمل الشقة المزدحمة بالكتب والصور العارية، وصور أطفال يتضرعون، وتماثيل خشب، والتفت نحوهما حينما سمعت أم ياسر مندهشة هي الأخرى تسألها غير مصدقة.

- معقول ! ؟

وتعيد النظر إلي . انتقل ياسر بجانبي، وقد تسلل إليه الاندهاش هو الأخر، وبدلا من سؤالها عن ما حدث، سألها عن سوزى فقالت.

- ستأتى بعد قليل

ولندا راحت مشوار مع جرجس . نهضت للانصـــــراف، ولكنـــها تشبثت بي، وأصرت أن أبقى لأنها تريدني فى أمر هام ..

جلست بجوار ياسر، وغابت هي قليلا ثم جاءت بأكواب ليمون ومـــا تزال تتأملنى . دخلت حجرتها دقيقتين، وأطلت من فتحة الباب تطلب منـــى الدخول . وقفت فاغرا فمي لا أدرى ما أفعل، ولكنها أقبلت وســـحبتني مـــن يدي . كانت الحجرة مزدانة بالصور، وبـــها ســـرير ومقعـــد وكوميدينـــو، ورائحة غريبة . أشارت كي أجلس وهى ترقب نظراتي الوجلة تنتقل بيـــن الحوائط، وثقلت على الرائحة فتململت، يخنقني الحرج فأختلس نظـــرة إلـــي شعرها السائب، وعنقها المقاوم للزمن وحينما عدنا إلي الصالة قالت مبتسـمة وهى تحدق فى عيني.

- لسه عاوز تتجوزها ؟

كنت في غيبوبة، وهى لم تمهلني وأرادت الإجهاز على . نظـــرت لأم ياسر، ثم التفتت وسألتني أن كنت مرضت وأنا طفل . قلت.

- أيوه حصل

- دخلت المستشفى القبطي

وازددت حيرة .

(هل هذه المرأة تمارس السحر والشعوذة ؟ هل جربت معـــي حيلـــة دن أن أدرى ؟.. هل هي من هواه الأفلام الدرامية المحبوكة ؟ ..) كـــانت فعلا مفاجأة، فقد قضيت فترة طويلة بالمستشـــفى القبطـــي، وكـــانت أمـــي تذكرني بتعبها معي وهى ساهرة الليل بطوله، خاصة تلـــك الليـــالي التـــي

الأطباء يضخون بخارا فى فمي ويطلبون منها إمساكي فى مواجهته كي استنشق، وأظل انهج حتى يغمرني العرق فتدثرني لأنام منهكا، وحينما اقلق باكيا، أراها قادمة من أخر العنبر شبحا عنيفا . تنحني تحكم الغطاء، وتعود إلي رفيقاتها يسمرن بهمس يؤنسني قليلا قبل أن يحط النوم فلا أفهم سببا لضحكهن، ويطلع النهار فتأتى ممرضات بزي ابيض وطرح بيض، ووجوه بيضاء، وعيون زرق، تقول أمي إنهن قريبات لام وديع التي خرجت بعد موت ابنها، يكاد يذهب منها العقل لأنها لم تره قبل الموت بيومين، وحرمت عليها المستشفى دفنه لخطورة مرضه المعدي .

– فاكر أم بديع ؟

سألتني أم سوزى كمن تحث خواطري .

قلت : كانت فى عنبرنا بابنها ..

واندفعت نحوى تعانقني وتضمني بقوة وعصبية، وبصعوبة بالغة انفلت من تشنجها ووقفت مبتسما . وياسر يتأملنى وقد اتسعت اندهاشته وسألتني أمه.

– مالك ساكت كده ؟!

كانت ابتسامتي لم تزل معلقة .. نفس الابتسامة الساخرة التي أقابل بها مثل هذا المشهد في الأفلام المصرية القديمة، ولكنها أخذت الموضوع بجدية وقالت.

– مشروع الجواز يتلغى طبعا

قالتها بثقة وهدوء، ثم توجهت إلى دولاب بضلفتين، وأخرجت ألبوما، وعلبة خشب مستطيلة . سحبت صورا قديمة ناولتها لام ياسر التي

بدت حائرة، ثم قدمتها لي .. صورة طفل ممتلئ واسع العينين، إذا تصـور رائيه انه اكبر، فلا بد سيكون اجمل من جرجس، وصـورة لامـرأة شـابة تشبه أم سوزى تحمل الطفل، وبجانبها رجل نحيف حسن الهندام (ليس لـي صور لطفولتي .. نحن لا نهتم بهذا أبدا .. الصور الأولى كانت للقبول .)

وكـأنها قـرأت ما أناقشه مع نفسي.

قالت:

- شبهك وأنت صغير، صح ؟

[كانت أم وبديع بيضاء وممتلئة قليلا . جاءتها ممرضة الليـل بعـد استلام الوردية بنصف ساعة .، وقفت أمامها مترددة، وعلى وجهها ابتسـامة وديعة تشجعت بها أخبرتها بقرار الدكاترة لنقل ابنها إلـي العـزل، وقـالت بأنها ستأتى فى العاشرة لنقله . قامت أم وديع إلـي سـريري واحتضنتنـي بقوة، وظلت تضمني إلي صدرها الدافئ اللين ودموعها الساخنة تنزل علـى وجهي بلا توقف، تحاول مسحها بكفها فتسقط من بيـن الأصـابع تمسـك المنديل وتقربه فيغلبها النشيج وتهتز، تبتعد يدها ليتواصل الانـهمار يبللنـا فأتململ بالأنين .. والصبح وجدتني مع أمي السمراء الجادة دائما، ولـم أرام وديع من يومها] .

- سارح فى ايه يا قلبي ؟

جئتني بحلمك فزعة

(رأيتني فى بستان أترقبك، وحولي أطفال يلهون، وكلما أغمضـت عيني وفتحتها، رأيتهم كبروا .. كانوا ينمون بعشوائية مذهلة، وصرنا نـنزل البحر، فإذا المياه تغور ويعلو الملح، قلنا هو المالح ! وذهبنا الى المتوسـط

والأسود .. فغمرنا الموج ملحا أجاجا ! يأكلنا الجوع، فموزنا يابس، وبلحنـــا لا يتلون بعد اخضرار . نقلت وحدي إلـــي زرع ومـــاء، وفجـــأة نـــورت البستان جموعنا الكثيرة ففزعت ودخلت المنحل، ولبثـــت ارقبـــهم يطـــأون الثمار ويكسرون النبت ويفزعون الطيور . كنت فى مأمنى قلقة عليك حتـــى هللت فتراجعوا، ولكن أطفالي الذين كبروا حينمـــا رأوك معـــي، أو تقـــوك وصاروا يمزحون بي غير عابئين بسني، وإذا ديدان النيـــل تجـــرى خلفنـــا مشرعة الأنياب ...) فمن منكما علمت الأخرى قراءتي ؟

حطت إمامي وحولي وجوه أعرفها، ياســـر وأمـــه وأم ســـوزى، واستفسرت عن حديثهم، ابتسموا وتجاوروا يتهامسون .

[لو سمع بهذا الشيخ بدوي : وصبري الذي أضطـــر إلـــي لزيـــارة زميل، واقسم أن رائحة الشقة مذرنخة وأكلهم كله بالزيت، ولهذا فقد ســـارع بالانصراف، ولم ينه السلم حتى تقيأ ! : ولكنى أصلى ! واذهب إلي المسجد كلما أتيحت الفرصة، واحفظ الكثير من سور القرآن ! ومـــا موقـــف أمـــي وأخوتي .. وأنا الذي كنت أتوقع اعتناق سوزى الإسلام ! لكن ليس هذا هـــو المهم .. المهم هو قناعتي الآن .. ورغم مساوئ المســـلمين، فأنـــا بـــالفعل موقن بصحة الإسلام .. هل ستكون لي أسرة هنا وأخرى هناك ؟!]

عشرات الأسئلة الصعبة تتدافع، براكين انفجرت فى رأســـي، ومـــا يغيظني حدوث هذا معي أنا بالذات : نفس القصـــة المقـــررة فـــى الأفـــلام وأسخر من سذاجتها ! انتشلني ياسر من الفوهة الملتبهة، وكأننا فـــى حلبـــة الملاكمة، ارتمى منهكا غارقا فى العرق، يهزني نـــهجان مســـتعر، القـــى بظهري بحثا عن حائط فلا أجد سوى حد منتصف الظهر كنصـــل مســـنون

انهض لاهثا أطلب الصعود، أمشى بلا كلمة، اجلس فـــى حجرتـــه، ارفـــع رأسي المثقل، أتطلع مستفسرا ومندهشا، مغتاظا وحانقا، مكذبا ورافضـــا .. هل كان يعرف هو وأمه ؟ هل لدى سوزى علما ؟

وبدهائه المعهود، نقلني ياسر إلي حديث أخر، وصعدت أمه فـــأعدت الطعام وقالت كمن تكلم نفسها وهى تنقل الأطباق.

- أم سوزى طلبت جرجس فى التليفون .. واشترت فرختين

وضعت الملاعق بجانب الأطباق واعتدلت تمسح كفيـــها بالفوطـــة- وسوزى قاعدة ساكتة- سحبت الكرسي وقعدت- تايهة يـــا قلبـــي ! ســـألت ياسر عن إحساسي بعدم ارتياح جرجس لي فقال بأنه طبيعي !

- مش كنت عاوز تخطف أخته ؟

وضحك.

- لكن دلوقت يا عم ارتاح على الآخر !

وذا بالنقر على الباب . نفس النقر الخفيف الطروب المهذب، ولكنـــه الآن غير مسلح، غير مندفع، ليس به حماس، نقر مندهـــش أو مـــتردد، لا يريد الموافقة . دخلت سوزى ورمقتني بنظرة غامضـــة ثـــم مضـــت إلـــي الحجرة فقمت خلفها .

[أضحكها ؟ أصفعها ؟ اقبلها ؟ أصرخ ؟ أبكى ؟ ...] جلست علـــى السرير، ووقفت أمامها متهدلا، ليست بي قوة، ولا هزة الفرحة المفاجئة، تـــاه الكلام فجلست بجانبها أدخن، فيما أدار ياسر جهاز التسجيل ليخترق الأنيـــن صدرينا ويجد أرضه وصداه (أنا وشادي غنينا سوا . ركضنا على التـــل،

لعبنا بالهوى، أنا صرت اكبر، وشادي بعده صغير، عم يلعب علـــى التـل وتنهى كلمة التل بنعومة حادة مثل شفرة الموس فتوخز قلبي .

جاء جرجس مهرولا، وقف مبتسما يتأملنى وكنت انفر منه . عـانقني بهدوء، ونظر فى عين سوزى التي تدلي رأسها، ثـم طلـب منـا الـنزول وأمسك بيد ياسر وتقدما أمامنا، والتفتت سوزى إلي أم ياسر وقـالت بأنـها لازم تنزل معانا لان ماما أكدت عليها .

انتابني شئ من الحرج وأنا أتوسط السفرة، وكانت ليندا وأمـها فـى منتهى الحيوية والفرح، حتى أن ليندا قبلتني مرة على خدي وأخـرى علـى رأسي وهى تنقل الأطباق من المطبخ، وتأملتها من الخلف داخل البنطلـون الخفيف المحبوك .. حيوية مثيرة ومحفزة، فـى طلاقتـها دعـوة تكسـر الحواجز وتمحو المسافات، وكأني أخلصها من البنطلـون والتـهم لحمـها المتدفق بضا مخلوطا بحمرة شهية، تفوح منـها رائحـة الحيـاة الفـوارة، أتصورها على ظهرها تتأوه والجزء العاري اسفل مؤخرة العنق من الخلـف والأمام يلمع فى عيني فتغشاني الدغدغة الآسرة، واضطربـا قليـلا حينمـا انتبهت متلبسا بعدم زوال رغبتي فيها فاستدرت إلي المائدة أتظاهر بـالتفكير العميق فى شئ بعيد ..

نهض جرجس وغاب فى المطبخ، ويبدو أنهم كانوا ينتظرون الطبـق الرئيسي المفضل، فحينما هل به، تطلعت الـرؤوس بابتسـامات متشـوقة، وقالت أمه.

ساعة ما قلت له حلف بالعذراء لازم نحتفل ..

وضع الطبق المستطيل فى المنتصف محاطا بنظـــرات نهمـــه ... لحمـــة حمـــراء لـــزجـــة بـــدأ فـــى تقطيعـــها، فيـــما تحثـــه ليندا للإســــراع
– وحشنا لحم الخنزير من زمان ..

ووجدتني انتصب مهرولا إلي الحمام أفرغ ما لـــدى حتـــى دمعـــت عيناي، ... وخلفي سوزى ممسكة بالفوطـــة . غســـلت وجـــهي، وعـــدت معتذرا، وقدمت لي سوزى صدر فرخه، ولكنى لم استطع . تخلصـــت مـــن النظرات المتبادلة فيما بينهم كأنهم يقولون.
– لم يتعود بعد
وجلست بعيدا أدخن ...

ومع القهوة، بعد العشاء، ظلت سوزى تجلب لـــي الفـــول الســـوداني والشكولاته، ولا تفـــارقني عيناهـــا (لـــى الآن أن اقبلـــها واحضنـــها ..) واستأذنت أم ياسر .. وقامت كما قعدت، وأبقيت ياسر بإلحاح شـــديد لـــيرى هواجسى عن جرجس تتجسد وهو يتحدث عن فقدهم لـــي، وعـــن الأســـرة المسلمة التي خطفتني، وعنى أنا الأسير لديهم كل هذه المدة . كان مخزونـــه وفيرا، ووقف ياسر ضائقا وقال بأنه سينتظرني فوق،وبدت سوزى محرجـــة ومترددة فى اتخاذ موقف ما، ثم ظهر تململها من جرجس حينما ذهبت فـــى ليندا تسكتها وهى تؤكد كلامه (بدو) وشعرت بتوتر الموقف، ولكنى كنـــت مهانا بالفعل . قلت بهدوء كأني انتظرت للرد عليهما معا .

(كل الشعـــوب مـــرت بمـــرحلـــــة مشـــابهة، ولا بـــد أن يســـبق بعضـــها البعـــض الآخـــر .. وتمـــنيت إن تـــكون لـــي قـــــراءات فـــى

التاريخ والفلسفة والديانات)، ولم استكمل كلامي، ورغم هـذا، بـدا التوتـر على جرجس وتخلص من الموقف كله (نأجل المناقشات دى لوقتها..).

قامت لندا لتجهيز حجرة لي، وأتت سوزى بأوراق قديمـة وصـور تعيد رؤيتها وفحصها .. هي مثلى لم تتيقن بعد، وعنـد صـورة معينـة لا تشبهني توقفت وأطلت نحوى فهززت كتفي دون أن أغادر عينيها، ثم برقت عيوننا لحظة أمام هذه الملاحظة .. التقينا عند نقطة واحدة، ووددت سـؤالها عن مـدى مـوافقتها لاستنتاجي الخاص .. ربما كـانت أمـها وراء هـذه الحيلة ..

وعاودتني الأسئلة الملحة والقلق فقمت للانصراف وسط دهشـتهم، إذ جاءت لندا فرحة تخبرنا بإعدادها للحجرة والفرش، ولكنى ألقيـت التحيـة ونزلت .. سوزى خلفي ترطبنى حتى مدخل البيت فلا أملك نفسي واحضنها بحياد، واسألها : وماذا كانت ستفعل بعد ذلك ؟! وأجبت أنا (بعد شهر تفكـو هي وجرجس فى حيلة جديدة تبعدني !) وضاقت نفسي فتركتـها ظمـأى وكانت ترغب فى مرافقتي، وبعد خطوتين توقفت، ووعدتها بـالعودة بعـد ساعة أمام دموعها التي لاحت وهى تحاول كبحها .

سرت بجانب البيوت، تتكاثر الأسئلة على، وصور الطفولـة تعـود مسرعة، وما حدث اليوم عند ياسر وجرجس .. كلامه الثقيـل، وعـاطفتي تجاه سوزى ورغبتي فى لندا، ورغم أمهم، والصـور الملفقـة . [ولكـن معرفتها بمرضى فى هذه الفترة، والمستشفى، شئ غريب ! صحيـح كنـت أتساءل عن حقيقة انتسابي لأسرتي، ولكن هذا كان عقب ساعات الغضـب واشتداد أخي فى تعنيفى كلما رفضت الاستمرار فى الغباء ! يصيح الكبـير

أمام أبى وأمي بأنهما سيجعلانى مثل البنات، ويؤمن الثاني (أيوه يابـــا مـــا فهشي خشونة الرجالة) .. ويتكرر هذا، عندما يعود أحدهم ويكتشف ســرقة كيزان الذرة الذي أحرسه، أو رؤيته لواحد خارج من الغيط يحمل حشـــيش للبهائم وأنا سارح فى فضاء الله .. لأول مرة اشعر بانطفاء لهفتي لسـوزى . كنت أريد محادثتها إذا عدت عقلا لعقل، وقد تضـــاءلت الآن فـــى خضـــم الضجيج ولفح الأنوار المصرية الفاضحة . قفزت فى ســـيارة هربـــا مـــن مطاردي . اصطدم رأسي بالسقف، والولد الذي كان يطل من فتحـــة البـــاب مناديا يلومني (على مهلك يا بيه ! ..)، أعبر النهر، أدفع الباب محـــاذرا، ألقى على السرير فلا اصحو ألا الساعة التاسعة صباحا، وأمـــي تقـــدم لـــي الإفطار .. أمي تلبس جلابية بيتي واسعة داكنة الألـــوان، وعلـــى الـــرأس طرحة سوداء، لم أر سوى جلد وجهها النحيف المكـــر مـــش، والكعبيـــن، وكفاها اللتان تعمل بهما الشغلة، معروقتان وبهما قدر من توتـــر الإجـــهاد، أتأملها الآن كأني أراها للمرة الأولي .. أول مرة أحس بها كائنا مجســـما . كانت دائما مجرد فكرة . رأى يرفض أو يقبل معنى مجـــردا، فلـــم أر بـــها نقيصة أبدا ورغم ألمي من حزنها المتواصل بلا سبب، كنت أدرك فرحـــها دون أن تفصح . عيناها هما معبد الأسرار .. بحيرة واسعة جدا وعميقـــة، ومجرد نظرة خاطفة على سطحها، أدرك حال الموج والتيار، وافـــهم مـــن بعيد مدى تأثرها بمياه البحر الكبير، أبي، فكلما سكنت مياهه، صفت مياهـــها وراقت، ونظرة خاطفة أيضا، اعرف ما فى السماء من ســـحب جدبـــاء أو غيث منهمر، حتى الطعام الذي سنأكله أعـــرف علـــى أى نحـــو ســـيكون، فنظرتها الواعدة بالعطاء يعقبها ذبح للطيور، والتفاتها الى الجهـــة الأخـــرى

عند السؤال عن طعام اليوم يفي بالإجابـــة، وغالبـــا مـــا يكـــون الجبـــن أو البطاطس، وافهم إنها لم تستطـــع مواجـــهتي، وكأنـــما تهمس (مـــا بـــاليد حيلة !) .

وضعت الأكل وتأملتنى برهة، ثم استدارت فخرج مقدم استفسار لـــم أتهيأ له (هي المستشفى ..) وانهزمت عيني وأنا أحاول النظر فى عينيـــها وقد التفتت تحثني كي افصح . وضعت كفى على صدري وهـــى تســـألني ملهوفة.

- مستشفى ؟ مالك يا قلبي ؟!

قلت بسرعة محاولا الابتسام.

- أبدا ؟؟ الكحة !

وسحبت يداها اللتان مرتا على رأسي وصدري ما بين الميم وبيـــن الفاء . قالت بلوم مقتضب (السجاير .. ريقي نشـــف لاجـــل تبطلـــها ..) وأعادت نصائحها القديمة، ثم حلفتني بالنبي وبرحمة أبى الغالي أن اذهـــب للدكتور، وسألتني إن كان معي نقود لشراء الدواء، ونزلت مترددة .. قبعـــت يومي مسترجعا، وصور أبى وأمي وأخوتي تمر .. جدي وجدتي وخـــالاتي وأصدقائي .. زملاء الكتاب والمدرسة .. لعب الشـــارع والغيـــط، وعلـــوم الترعة والمساقى الكبيرة .. صور متجاورة وفواحة، غيبـــت المشـــاجرات الصبيانية والغضب الهش الذي تبدده ابتسامة أو بوح اللمة المسائية تغســـل ما علق بثوب النهار .. وكأنني لم ارفض العيش هنا قبلا، لـــم أتذمـــر مـــن الجفاف والرتابة والمسكنة، قلت لنفسي (لو يتخلصوا من عيوبـــهم شـــويه ويفهموا صح !) بالليل خرجت مرغما، ألقى السلام على رؤوس شـــوارعنا

التي لا تخلو أبدا من أقارب ومعارف وجيران، وفى الميدان الواسع أمام المسجد، كانوا يقفون تحت شجرة اللبح، ولمبة الشارع الوحيدة الباقية، نادى مدحت على متهللا، وحينما تقدمت أصافحهم توقفوا عن حواراتهم المبعثرة .. وبدءوا يذكرونني بمواقف معينة ويضحكون . يسترجعون دائما ما مضى فى ليل القرية الخالي، يكسرون حدة الفراغ ووحشة الملل، وسألني أحدهم عن القضية . ووجدتها فرصة .

صاحبتهم ورحنا إلي المحامى فى حجرته المقتطعة من المنزل كمكتب، وصار مع الشاي يستجمع القوانين والمصطلحات ويبين قدراته غير العادية، وبغتة سألت عن ورشة الخشب الجديدة والمبنى المبهم خلفها والمشاع بأنه كنيسة تحت الإنشاء . وثرثروا، كلام متوجس ومشحون بالرفض، حتى أبعدهم عن الصلاة والمسجد، وفكرت لائذا باندفاعهم تحت سطوة البوح والتخمين (.. الآن لي أسرتان .. وأمامي طريقان ! .. أصدقاء هنا، واخرون يقتربون من الصداقة هناك .. هؤلاء تفكيرهم مشوش، يستمتعون بالثرثرة والإفضاء من طول البطالة) .

جرجس يشعرني بالخوف والقلق، تفكيره منظم ومنبى على رؤية ناتجة من إحساس خاطئ ومغلوط ..)

وصلت المناقشات العقيمة إلي المقارنات بين الدول، وحينما استقرت ككل مرة على وجوب العمل لملاحقة المنال المنشود، حدث الارتخاء المحلى بالسكر واختفت كل دلائل الفتوة ..

(.. وسحابة آتية تهرول، تبطئ فوق رؤوسنا، ترقد ، تتسع، تنكمش، ترتعش، تضع بيضتها ناضجة، تقف صائحة، تنصرف . نحدق فى

عيوننا، نهز الأكتاف ونمضى، نتوارى، نتغامز : دعوها للعـــراء تفســد، أو تفقس إن كان لها فقس !، وليعلم إننا لسنا البلهاء الممتحن، ولسنا من يغــادر مكانه أو يشد طوله ..)

كما كنا دائما ! كلام فى الكلام على الكلام من الكلام إلــي الكــلام ! عمل مرتجل أو متواصل تشقة الذاتية ! .. وككل مرة خرجنــا فلــم بقايــا الثرثرة ندوخها وندوخ معها والشوارع الهامدة حبلـــى بشـــباب الجماعـــات يحرسون الصمت ويبحلقون بحنق ودربة فـــى الوجــوه المســربلة بنتــف الضوء العليل .. يفسرون الحظي ويقرأون الأسماء فى جلسات ليلية عميقـــة ليدونوا كتاب المسالك والممالك والجحيم والنعيم كي يعيد الحفدة تأويله فـــى ساعات قيلولة العقل الممتدة نحو العشرين .

عدت وحدي إلي البيت بعد منتصف الليل، وبي رغبة جديدة وعارمة فى التعرف على حياة جرجس . رغبة محايدة فى فهمه، وبدت لــي حياتنــا جميعا مثل كوكب نصف مظلم، والآخر يظلم، ولتجاوز جباله ومســـتنقعاته وحممه وبراكينه نحو سهله ومنابعه لا بد من الفهم المجرد أولا ..

وأنا نازل الصبح، طلبت أمي خبزا، فكل الناس- كما تقول- تحمـــل الثقيل لبيوتهم .

أنت حتشيل جمل ؟! شنطة بلاستيك فى أيدك كل يوم !

وفى الشغل، أخرجنى ياسر من بركتي الآسنة باقتراح بسيط، وبـــدا متشككا فى موافقة سوزى، ولأني اعرفها اكثر منـــه، قدمــت الإذن الثــالث والأخير هذا الشهر، وانصرفت .

قلت لها ما لدى باختصار فإذا بها تجرى إلي حجرتها وتغيب خمس دقائق، ثم تهل بملابس الخروج فابتسمت وتبعتها، وسألت أمها مندهشة فردت باقتضاب.

- فسحة صغيرة

وتوجهنا ناحية مستشفى الساحل، ولكنها اقترحت معملا يملكه دكتور كبير وكان قريبا من دوران شبرا . دخلت هي أولا، ودخلت بعدها، وحينما خرجت، وجدتها فى البلكونة سارحة ..

كنا دون مناقشة، نفهم بعضنا البعض، أعرف ما تفكر فيه وتتمناه، وهى كذلك .. فمهما اصبح لها، ليس أبدا مثل حبيب ! ورحت أتساءل بخجل عما سنكون عليه فى الحالة الجديدة .. عن عاطفتنا ومشاعرنا، عن الحب، الحلم ! كيف ستتحول إلي الجهة الأخرى، العطف والخوف البارد، والحوار المقتصد، وفقد الرغبة !

وهجرتني شجاعتي، ونزلنا نتمشى قبل التفكير فى مكان يأوينا ويتسع لمتناقضاتنا فى هذا اليوم، مكان نتغذى فيه، ونلقى بعضا من أثقالنا .

طائرين عدنا مع طيور المساء، و إذ يرانا بما أحسه كامن بأعماقه، انتزعني جرجس من سوزى، وقال ضاحكا لأمه : أصدقاء سيحتفلون به الليلة، وفى سيارته اليابانية الأنيقة، أعطاني سيجارة رو ثمان، ونفث دخان سيجارته، ثم سألني دون أن يلتفت.

- بتشرب ؟

قلت لا . قال بشيء من الندم.

- سأقدمك لأصدقاء أعزاء، ومهمين جدا !

وكأنني لم افهم، واصلت سكوتي، لكنه اسـتدار وتـأملني بإمعـان، وعاد ينظر إلي الطريق .

كان أصدقاؤه قريبي الشبه من بعضهم البعض . قدم السـيدات أولا : جيئولا، ألمانية -ممكن نقول إسرائيلية ألمانية - هانا سويسرية، هوسـتن، المانى، فورستر، أمريكي، هانز، إنجليزي، بيتر، روسي . وتبقى ثلاثة لـهم ملامح عربية لم يقدمهم لي، أحدهم اسم ولهجته سودانية، والآخـر لبنـاني، ولم أخمن جنسية الثالث حيث أشار جرجس بالجمع قائل.

- إخواننا العرب

وعقب نطق الجنسية يلتفت نحوى ويرمقني ثم يستدير ليقدم آخـر، وجلسـنا بينما ظلت هانا واللبناني واقفين أمام فور ستر، حتى أنهى كلامه لـهما، ثـم دخلا خلف ستارة خضراء سميكة، وسمعت موسيقى تنبعث مـن الجـدران، هادئه وعميقة، وتبدلت الأنوار الزاهية إلي إضاءة ملونـة، وسـألتني هـانز بعربية جيدة عن عملي فيما أطلت هانا برأسها من جانب الستارة وأشـارت بإصبعها فنهضوا، وقمت مع إيماءة جرجس لي . تناولنا عشاءا فـاخرا فـي صالة واسعة، وخرجنا إلي الأنتريه ودخلت جيئـولا تدفـع أمامـها عربـة صغيرة مزدحمة بزجاجات الشراب والكؤوس وعلـب بـيرة وثلـج، ولمـا تمنعت عن الشراب، صاح اللبناني ضاحكا (فك يا خـي . فـك) وغمـز بعينيه إلي جرجس وهانا التي تبدو صغيرة السن رغم فوره جسدها المثـير . اخترت علبة بيرة، بينما اخرج فور ستر ورقة واخذ يشـرح لبيـتر وهـانز متتبعا خطوطا ودروبا مرسومة بالقلم الرصاصي، والعـرب علـى الأرض أمـامهـم الكـؤوس والسجـائـر، وأنا راقـت لي العلب فأخذت الرابعـة

(إلي ماذا كانت ستؤول رابعة لو لم تكن الرابعة ؟) . كانوا جميعا يتـأملونني خلسة، واخذوا يسألون أسئلة تنم عن ثقافة ثم يمسحونها بمحاولات لإشـــاعة جو من المرح بين الحين والحين، واللقاء الثقيل جدا على نفسي لا يـتزحزح حتى تحررت النساء من ملابسهن الكبيرة وأبقين نتفا، وتحركـــت حواســي المقيدة صوب الالتهام تحاول الانفلات من النظرات الشـــائكة (لــو كنــت وحدي مع إحداهن ! .. لا بل اثنين .. ولماذا اثنين ؟ .. كلهن ! هـــذه هــذه بضة هيفاء، وهذه اكثر رشاقة، وهذه ..) لم أنته بعد مـــن فحــص وتــأمل الرقع الصغيرة القليلة على الأجساد البيضاء حينما وقف جرجس ومد لي يـده فقمت، وصار بجواري . كنت اعتقد انه سيأتي معي إلي مكان مـــا، ولكنــه صافحني أمام الباب وظل واقفا حتى نزلت وسمعت صوت الباب يغلق .

كل طرق المساء متشابهة، الوجوه والبيوت، وكل أصدقـــاء الليلـــة لا فــرق بينهم، والمتغير الوحيد الأكثر جمالا هو رأسي المنحدر .. ولاحت فى ذهنــي فكــرة الذهـــاب إلي بيتهم (أحس فى لحظتي الآتية وعنـــد ذكــر بيتـــهم، بالغيظ ..) كانت بداخلي شحنات مغايرة لكل ما مر بـــي، وآلمنـــي بعــض الشيء إحساس براحة مؤقتة ستزول وتفنى، واشتهيت تغييرا يبدل مـــا أنـــا فيه، ينيمنى فى منطقة منســية خــارج النـــاس والزمـــن وكـــهرباء العقــل والنظريات أوقفت تاكسيا مثلى مخدرا بالليل والصمت المشـــوب بحركـــات خفيفة تطعمه . طرقت ثلاثا، ثم ضغطت زر الجرس مـــرة واحـــدة خفيفـــة ففتحت لندا، وكانت بقميص نوم شفاف جدا، . انقلب حالي، وكأنني مطـــارد أريد الاختباء، دخلت بسرعة وألصقت ظهري للباب وعيني فى عمق عينيـــها منذ فتحت . دام اختراقي لها لحظات طويلة جدا سقطت خلالها أشياء كثيرة،

وقعت تحت الأقدام فتقدمت نصف خطوة ووطئتها، وهى تقدمت بنصف خطوة .. أمسكت معصمها وجذبتها بهدوء، ثم لويت يسراى فى إفاقة عابرة فأطفأت نور الصالة واندفعت أحضنها واقبلها بشره غريب، وهى بعد استكانة طارئة، انهدمت، ثم انبعثت رغبة ولاحت لي صور من تركتهم منذ قليل، دنت إذ هيجت منابع وصلها، والهبنى صدى صوتها متأوها (اخترقنى، توغل في ...) فانغرست، وكبرت، تفر فى رأسي فأبصق عليها، عليهم، ابتسم بلا توقف وبلا سبب واضح . كل وجه بقبلة وبغير، يأخذ صفعته ليأتي غيره .

حوالي الثانية عشر ظهرا، استيقظت . لم اعرف كيف ولا متى نمت . خرجت من الحمام ووقفت فى البلكونة استعيد مشوار شقة السهرة .. كانت فى الدقى أو المهندسين لا اعلم . الوجوه قريبة الشبه، والكؤوس والوليمة، واللحم الرخاء الحي أبيض فى احمر، ولندا، آه لندا !

تطلعت نحو بيوت الشارع الكبير القديم، وجاءت لندا بالشاي (أسألها عن سوزى ؟) قالت بذكاء العلم والفطرة معا (سوزى خرجت في مشوار مهم، وقالت وهى نازلة، هو عارفه ..) لهجة لوم وفهم وغيرة وتقصى وحياد ! وضعت الصينية الصغيرة على حائط البلكونة، وشبكت يداها على صدرها وجلبت ابتسامة (أحكي لي بقى ! عايزة اعرف كل شئ ..) هل تسأل عن الليلة الماضية ؟ ربما تدخر انفجارها إلي حين ! انتقلت بالكرسي إلي بقعة الشمس القليلة توشك أن تغادر، وبصبيت اسفل الجهة المقابلة .. كان المقرئ قد صدق فختمنا قرآن الجمعة من سورة الكهف، وأذن لركعتي السنة والخطبة فنهض أصحاب المحلات والدكاكين لإغلاقها وترك بعضهم

الشيتش ووقفوا لدفع لحساب، فيما لحق بهم زملاء وجيران نزلوا من البيـــت، وتوجهوا جميعا صوب المسجد بملابس نظيفة مكوية ولحى منسقة أو ذقــون محلوقة تماما . (هذه الرؤوس المحمولة، ما الذي يشغلها الآن ؟) هـــؤلاء البشر، أنتمي إليهم .. الماكر والسارق، الطيب والشرس، والشرير الذي هــو بشر أيضا وضعيف جدا، الكبير والصغــير، القــوى المعــافى والضعيــف الواهن، حتى المريض المعفى .. كلهم، كلـــهم يتكــاتفون فـــى مســيرتهم . بعضهم يتمتم بأدعية أو آيات، أو يستغفر، والبعض الأخر لائــــذ بـــالصمت الوقور، مثل أطفال زالت شقاوتهم أمام جدية الأب شامخا يناديهـــم (كفــــى لعبا) .

كانت الجمعة الأولى التي لا اصليها،وشعرت باقتطاع مؤس، ونبهتني لنــــدا إلي طول سكوتي . هبطت إليها مستغربا وجودي هنا، فـــى هـــذه البلكونـــة الضيقة مثل رئة عليلة .. ثم جاءت ووقفت لصقي بصدر مفتوح ينز شــــهوة فاستكنت سادرا فى الصمت .

كنت قد قررت عدم الإفصاح لأسرتي عن شئ . علــــى الأقـــل الآن ! (إذا تيقنت مما قالته أم سوزى فيمكن أن أبقي هنا يوما فى الأسبوع، وألا فســوف أتزوجها .. ، وطبعا بعد تمهيد طويل ..)

بعد أيام، فوجئت بمرض أمي يشتد . ذبل لونها والعافية ! لا تطيعها حتـــى على صعود السلم، ولما كثر كــــلام الأطبــاء، وزادت جرعـــات الأدويـــة، رفضت أي علاج . تعطلت حواراتي القليلة مع من بالبيت، ونحـــن نلتــف حولها أراهم يتشاورون وقد أهملوني . غص حلقــــي وشـــرقت بانفعـــالات الآسي فعدت الى حجرتي أبحث عـــن موســيقاي .. الوحـــدة والموســيقى

الكلاسيك، وحركت المؤشر بنفس التعب الذي أحسه من أيام . وسمعت كلمة انفجار فتوقفت (وهذا هو الانفجار الخامس فى كنيسة بالقاهرة ..) وجاء فى تفاصيل الخبر، عثور الشرطة على خريطة توضح مداخل الكنيسة ومخارجها والطرق المؤدية إليها، واعتقاد البوليس إنها سقطت من أحد الإرهابيين ..

كان على فى الغد الذهاب الى المحكمة بشأن قضية نادية، وكنت أود رؤية جرجس لأسأله عما رأيته فى السهرة أو علاقته بهذه الخريطة، وفى المحكمة كانت سوزى جالسة فى ركن، وأمامها حقيبة جلدية متوسطة وشنطة يد صغيرة فوقها . تبدل إحساسى بسوزى، واصبحت لا أشم تلك الرائحة، ولم اعد أري الزيت . صارت فى نظري شيئا من مريم البتول، وشيئا من رابعة، وهى مع هذا لم تهدر ليالي ألف ليلة التي قرأتها أثناء الجامعة، ولا ولادة بنت المستكفى . هي ما أريده وأتمناه فى كل حين، فتارة حالمة، عيناها تتشبثان بالسماء، وتارة يغمرها المرح ويشعلها الذكاء فتناقش وتحاور، والضحكة الصافية لا تغيب وهى أيضا مشبوبة العاطفة، تقبل على مؤججة فلا يفصلنا سوى قدر محتوم وكان هذه المرة هو نتيجة التحليل . واضحة فى عينيها المنكسرتين، واشتهيت الانفلات لضمها بقوة، ضم روحي وجسدي، التحام عقلي ونفسي وشهواني، رجولي لا يطأ الطفولة، ولا يغفل حنو الشيخوخة .

أجئ إليك، لك، لي، تجيئين الى، لي، لك، تمر السحب الجافة، يعود البحر الى جزره، تتخلق الشوائب، تطل الشمس ويسكن الموج فأذانا صخرة جرانيتية مغسولة، منقوش عليها بماء القلب لهفة، وقصيدة فرعونية، وإذ

تشرق الشمس صاعدة، تمر فى صخرتنا الحياة فتولى وجهها شطر الضـوء، ومياه صافية ترتل أسفل منها، وطيور غردة تتعانق مسبحة، ألوانها تتحـاور، تتجادل، تصطفق، تتجدد، ينبت لها بـألوان جديـدة .. وإذ تئـن الصخـرة بالشوق ترتعش فتنتصب فتنقسم اثنين . أنـا هنـا وأنـت هنـا .. أمـامي، والقاضي المدجج ينفث بلا روية حكما بالحبس ثلاثة . فتطلقني الدنيا ثلاثـا .. أدفع الى هناك فيما يقول . رجل سرق نقود أمي ونقودك [لـم يفعـل] متشنجا بأداء مسرحي غير مقنع [عربة تسرب زيتها فجنحت الى الرصيـف متعبة] أقتلع رغم أسى العيون القليلة الحنونة . وتقطرك فى القاعـة منـى وأمامي .

ويتبجح آخر أكل السحت وعمل بالنخاسة [ما أدخله عليها ؟ ! ولماذا سـهل لها اللقاء، ومن مزق الحياء ... ؟ !] ويحاول رجلي قدر ما اقتنص من مال دون جدوى، وأغيب .

اشهر ثلاثة لماذا ؟! ، وكيف تمر ؟ ! ، وكنت عندي أول زيارة، تصحبيـن أمك ولندا وجرجس، وفى الثانية، كنت وحدك، وأمي .. أحبتك وقالت.

– ارتحت لها والنبي يا أبني !

ثم لم يعد لي سواكما ..

تنفجر الكنائس عمدا أو مصادفة، وتمرض أمي مرضها الكبير الطويـل، ولا تكفين أبدا عن المجيء ..

الآن اعلم أن الأمين العام (امين ؟!) وبعض الوزراء يأتون الى فيلا مـدام نوجه، فهل تعي ضربتهم إذن ؟ هل ما زالوا يذكرون الصيـف المـاضي، يخبئونه تحت ضروسهم ! ؟

كنت ضمن وفد الشباب، مندوبا (غير فاهم) عن الحزب بالقرية، واجتمـــع بنا الوزير في معسكر (أبى بكر) بأبي قير !، وطلب منا كقادة فرق تقديـــم الاستفسارات وطرح الأسئلة حول المستقبل والحزب والتنمية، وأكدوا علــــى الصراحة.

- نحن نريد الحوار الديمقراطي الحر ..

وقلت متفاهما يكبلنا (امين الحزب لا يفهم فى السياسة، وتم اختياره لمكانتــه الوظيفية ولعودة الإقطاع بأساليب وأشكال جديدة، وهو ابن أحد الإقطـــاعيين السابقين، ويجاهد لعدم وصول خدمة ألا لمن يستفيد منه .، ورئيس التنميــــة والأعيان يعملون كمرشدين للمباحث وهى تسهل لهم المهام، وتقدم الجبايـــات خوفا وطمعا ..)

وفى المساء، ونحن فى الخيمة، قال لي زميل وهو يضحك ســـاخرا (هـــل تظن انهم يريدون ديمقراطية ؟ أنت طيب ! هل تعلم - مثلا- ما يحصلـــون عليه من وراء هذا المعسكر ؟)

وبعد شهور قليلة، جاءت انتخابات المحليات، وتم استبعادي من القائمة التـــي أعدها امين الحزب ! ولولا استقالتي من الحزب بعـــد المؤتمـــر لأشـــاعوا استبعادي لسوء سلوكي مثلا !

ضربتهم أم ضربة أمك وجرجس، لا يهم الآن . المهم أننـــا نجحنـــا رغـــم قيدي فى الإفلات من طين الأحزاب، وقفنا بعيدا لنتفرج مثل الآخريـــن بـــل نرى ونتأمل ونحدد الخطأ والصواب ونفهم المسارات واللعـــب، فزياراتنـــا المتقطعة للتعرف على أحزاب المعارضة، المعلنة وغير المعلنة، لم تكن هـــي الأخرى بلا فائدة، وأيضا بلا طين !

فى المرة السابقة قلت مبتسمة، شهر واحد ويلتئم جرحى . ستشـــرق شـــمس يوم أحضنك هناك عند العتبة تستقبلنا الحياة معا . شهر وتخرج ، أخـــرج .. واتسعت منى الدهشة، إذا لم يكن فى عيني سوى النحيب فازددت لك حبـا .. واليوم .. لماذا لم تأت ؟! الليلة الماضية كثرت حركة الحـــرس، واكتظـت الطرقات والأسوار بالجند، وفى الصباح، همس الزبال فى أذنـــي (هربـت مجموعة من الليمان وانفجرت قنبلة أخري بكنيسة فـــى شـــبرا اليـوم ..) واليوم ضحى، قتلوا حكوميا بارزا، فبمن تنشغلين عنى ؟!

كان الأحد، وانفض الزوار، وعدت وحدي، وها أنا أشخص ما سألتني عنه.

(.. انهم يقدمون لنا الدين كما كان يفعل معنا مدرس العربي (أليس جـــزءا منهم ؟ !) يرشق قواعد النحو أعلى العصا ويقذفنا بها، جهمة وثقيلـــة، فلـم تؤينا المطولات العربية، وحين خلصنا منها ومضغنا من لحائها ما مضغنـــا، لذنا بالجديد المشرق حتى تغرب واظلـــم، وعرفنـــا الأدب والفلســـفة، ذقنـــا التصوف وكابدنا الهوى، فأين تراه الآن مدرسنا بنظارته وعصــــاه ؟! .. لا تسمعي لمتفقة ولا ترضخي لجر جس . لا تأخذي ممـــن يلقـــون المواعـــظ ويفعلون الموبقات، فـــهم معروفـــون جـــدا لكـــل ذي بصـــيرة، مفوهـــون، متظاهرون . الإسلام الحق هو الحرية والإبداع والجمال . ليـــس عنفـــا ولا مسكنة، إنه الإشراق يحصن الطيور الساعية الى الـــرزق .. هـــو الفجـــر والضحى .. أنا الآن لا أدعوك الى الإسلام، فكمـــا تريـــن .. العـــدد وفـــير والفعل قليل والفهم أقل ! ولكن لأنك قطعة منى، وأدرك ما أنت عليـــه مـــن حيرة .

اليوم جاءت لندا وياسر وأخي .. ما للوجوه تفصح عما نكابد ؟ نهارا يجلـــو ما استتر بليل ! (.. كانت قادمة لزيارتي المرة الاخيرة، ولكنها أصيبت فـــي انفجار الكنيسة إذا أرادت الصلاة قبل مجيئها !!) تـــروس العجلـــة تـــدور بسرعة، تنهش لحمنا ! والزبال لم ينتظر مكافأته، لمـــاذا ؟ . هرعـــت لنـــدا تهدئ فزعي الصاخب، سحبت الورقة المطوية بعناية ودســـتها فـــي جيـــب ياسر، وكدرني أخي بمرض أمي المتطاول .

بعد فوات الأوان، عرفت القصة المؤسية . فقدت نادية عذريتها مبكرا، هي وخمس عشرة فتاة زميلات لها فى المدرسة، والتقطتهن مدام نوجه ..
بغتة سألت.

– لماذا لا تذهبين مع جرجس فى سهراته مثل لندا ؟

وكان السؤال مربكا، إذا احمر وجهها وقالت.

– أبدا ! كل واحد له أسلوبه !

وقطعنا شارع شبرا فى آخر احتجاج عرفته القاهرة . كـــانت المواصـــلات متوقفة تماما، وبعض السيارات الملاكي تفر مذعورة الى الشوارع الجانبيـــة وقد تهشمت واجهات المحال والصيدليات، وسمعنا ليلتها المتناقضات .

كان جرجس يترنح من السكر والنشوة . فرحه يفـــوق الآخريـــن . ظـــل يتنقل فى الشقة يلقى النكات ويمازح النساء، يلتقط تفاحة يقضم منها ويضعـــها ليأخذ الكأس، ويسرد تفاصيل مشاهداته ومتابعاته فى ميدان التحرير وشـــبرا والعباسية وباب اللوق.

– العيال خافوا .. الولاد بتوعنا علموه الأدب .. !

قرص جينولا من صدرها ببساطة (ريم على القاع) فأشاح جرجس وأجـزم بأن ام كلثوم ليست مطربة وعبد الوهاب ليس ملحنا، وكل ما قدمته قصيـــدة واحدة لأبى فراس (أراك عصى الدمع !) أما عبد الوهاب فسارق للجمـــل الموسيقية الغربية .. وردت جينولا بأنه ليس للعرب شئ فى الفن، ومصـــر ليس بها سوى الآثار والنيل والشمس، وظهرت لندا آتيـــة مـــن المطبـــخ .

سألتني عن سوزى أمها ولم تنتظر ردا . سـحبتني مـن يـدي، وجرجـس يشجعها بنظرة جانبية . فقمت وسرت معها إلي البلكونة .

الآن، التقطت الخيط، وبدأت افهم ما يفكر فيه جرجس ومـا يرسـمه لـي، فعلاقتي بهم لا بد من الاستفادة منها .. يريدني وترا يعزف عليه أو رمحـا، وكأنني من هذا الفهم استنتجت الدافع وراء دعوة لنـدا الآن . قـالت بـأداء تمثيلي محبوك :

- الانفصال عندنا صعب !

- أنها تومئ إلى أنا وسوزى

وهى أدركت التقاطي للإشارة فاستطردت .

عشان كده جرجس متردد في أي ارتباط .. لكن تعالى هنا .. إيه رأيك أنـت في عروسه ألمانية ؟ أخت جينولا ..

وهربا من كمينها قلت.

- أنا افضل المصرية .. مسلمة، مسيحية، مش مهم

يا حبيبي المصرية مبتورة من تحت وفوق، والبتر التحتاني هو سبب اللـي فوق ! يعنى عبدة ! وعشان تتحرر لا بد من منع الوأد العصري للبنات ! ثـم انك دلوقت لك وضع تانى غير الأول ولازم تعرف حاجات مهمة .

- يعنى جرجس حيجوز أجنبية ؟

- مش لازم ! أنت فهمت كلمة انفصال بالعكس .. عندنا مـا فيـش غـير زوجة واحدة .

استـأذنت لدى سماعها جرجس يناديها . أمسكت سيجارتها وقبلتني بسـرعة (لحظة واحدة) وغابت . تطلعت الى الشارع التهم سيجارتي . ربع السـاعة

وأحسست بالتعب فجلست، وسمعت الرجل الأسمر يرد على بيتر الذي قـــال بصعوبة إن المشكلة الكبرى التي تواجههم هي الأسر الريفية، وبعده شـــرح جرجس شيئا ما بحرص شديد، وتسمعت باهتمام حينما ذكر اســـم ســوزى وكأنه منصت إنني منصت له .

عام إثر عام يمر، وأنا بلا مأوى . ملاذي أنت، وأنت النجـــوى .. تقتطـــع الأيام منا والشهور، أعيد صبر أيوب المر بكل قسوته، جنون قيس بطفولتــــه وعذابه . انعت بنعومة روميو وتسوله النظرة، وأمام أمواج اليأس وانفــــلات العمر اصرخ صرختين فيقولون أعمى متهور كأنطونيو !

أجيؤك ليلا ونهارا وقد تبدلت النظريات الهندسية أبيات شعر، مؤجج ومــؤس ولا يعدم الأمل ! فمن ابتاع روحك ؟ من اشــــترى الفــؤاد ؟ هبينــــي قــولا يسكتني ! أنا ؟! فلماذا لست معي ؟!

أمام الشاشة أثبتنا شجاعتنا وخوفنا وتخلفنا . كنا نتابع العرض حينما أنطلـــق الرصاص وسكت المذيع، فاهتززت، وعدنا مع الأطفال نلعب فى الــــتراب، فرحين بخلاص لم نفقهه ؟ صمت وصمت .

تداخلت بنا السبل وأنبهم المدى، تشتت الأبطال وخيبت قصص المواصــــلات والجلسات الخاصة والعامة كل الطموحات (تمت مساومات ... تنــازلات ... خان الكبار الجموع ... أمة بلا قادة) حتى أساطير البســـطاء مـــن الجنـــد صارت خرافة.

بعد الفرح الأكبر بلقائنا، أهدى الفرح الأول لحياتنـــا، الفـــرح المشـــترك .. تزوج ياسر فى إضاءة مفاجئة انتشلتنا من ربكة فقد التوازن . تعالى بلقيـــس نمسح بعضا من دموعنا، نزف الى الرمل اخضرارا، مريمي هيا .. ورحنــــا بألقنا الخاص، شاركنا فى إشراقة ياسر وتفتحه، وطوال الأسبوع، مصمصنــــا الشهد وغنينا الهوى، وأضيفت الى مشروع مكتبتنا الغنائية شــــرائط لنــــاظم الغزالى وصباح فخري ووديع، وصلصلت الموشحات والقصـــــائد العربيـــة

بإيقاع جديد، أنظر ، وتنظرين، كأنها تفشى هروب فرحتنا، نخـــاف منـــها أو بعدها، وكما وفانا القدر دوما وألهمنا مقدم الأحداث، فبعد الســـبوع بيوميـــن اثنين، قيل تعبت، ثم رقدت، ثم ماتت . أحد عشر يوما من ليلـــة الدخلـــة ! فغاب بكل يوم كوكبا، والشمس والقمر ..

ماتت أم ياسر التي هي أمنا، فلم تك أمك لك أما، ولا أمي، ولم تكن واحـــدة منهما أما لياسر .. أم ياسر فقط هي التي كانت أمه وأمي وأمك، هي التـــي علمتنا الحرية الملتزمة ومنحتنا الراحة ..

ماتت بهدوء وفى صمت الكبرياء كما يموت العظماء، كأنها كانت كل حياتـها رهن هذه اللحظة، لحظة زواج ابنها وامتداد حياتـــه .. اســتأذنت بإيمـــاءة خفيفة، وانتقلت، و (يوم ويومين، وجمعه، وشهر وشهرين .. تعبت بعينـــي الدمعة ...)

ولم يكن أمامنا بد من زيارات مختلسة هنا وهناك نفض شجوننا . ولكنـــها أبدا لم تدم، وقد قيل لنا فى البدء (لن تتركا لنولكما تغـــزلان، ولا لكلمتمكـــا تقولان، ولكن . ما تزرعان ستحصدان، وعلى قلبكما فاقبضنا ..)

اتفق مندوبو الفرس والروم قرروا إبعادك عن ساحتهم . كانوا فـــى عينيـــك بين الوقوف وبين الجلوس، أمك وجرجس ولندا، متوثبين بلؤمهم وشـــهوتهم بإصرارهم لنبذك فى العراء، قرود منثنية على قشها تلهو، وحوش خرافيـــة، وأنت ..! مكللة بالدمع، فهل أدركوا إنني مأواك ؟ أنت هنا، وأنا هنا والعـواء يلفنا : (تأتين إلى، الى بيتي، أم نبحث عن شقة ؟)

واخترت قربى، تمددت داخلنا، وصرنا أنا واخوتي نحـــرس البيـــت، فـــأنت شعاع منى قبل أن أعلن للملأ، ولكنها ليلة وحيدة لم تدم، لم تستوعب حلمنـــا

فى البقاء، وجاءتك المطاردة المسحوره لماذا تورد وجهها وقد طردت عنـــا هزيلة !؟ كيف تغرد عيناها بعيدا عن صخورنا وزيتنا ؟ كيف نعيد الى قلبـها سلامنا نحن ؟ .. مجانين كانوا، لا يخافون عليك منى، بـــل يرتعبـــون مـــن خاطرة التقاء المالح بالعذب، الأقصى بالغرب، اللبن بالخمر، النبيه بـــالبليد فى فصل واحد، واخترت قريبة لك من بعيد تقيمين عندهـــا حســما للـــنزاع الهمجي .

رحت معها أول مرة . لم ادخل وودعتها بالقرب من البيت بعد أن أشـــارت ناحية الباب والبلكونة الصغيرة فى شقة كالحة . خطت نحوها، يدهـــا ملقـــاة بمذلة بعد أن خلصتها من تشبث مضن مع يـــدي . ســـحبت قدمـــي ويـــدي واستدرت الى الشارع الكبير، صورتها تخايلني، متضرعة ومهجورة، أتفقـــد الشقة التي وصفتها لي، أتخيل أركانها ومقاعدها .. كيـــف ســتنام وكيـــف ستسمع فيروز، وكيف وكيف، يا ربى ! ساعة للألم، ساعة الفـــراق ســـاعة للبكاء يقتلنا .

أجئ أدور حول البيت، القفص، وحارسين عينهما جرجس، واحد بـــالقرب من الباب، خلف فاترينة يبيع أدوات تجميل مسروقة وأمشـــاط وإيشـــاربات نايلون ملونة، والأخر يحمل صـــرة مليئـــة بـــالملابس المســـتوردة وأدوات كهربائية يلف الشوارع الجانبية المجاورة، ونظرته لا تفارق البيت، السجن . شهر على شهر نهرول بغير هدى، نرقب بلهفتنا المسحوره غيث الغـــرب . ظهورنا لشرق أفل وقلوبنا خاوية على قاتها وحشيشها ..

شهر على شهر على رؤوسنا، يحترق النفط سدي، وتموت شعوب ديـــدان الصحراء جوعا، تباد أقليات جرذان البلقان بلا حول، والأقصى يئن . مـــن

ربقة الرجز والذل، انينة الدامي وأشلاء أطفاله يصعدون الى السماء صباح مساء، وسادة الناطحات يتبادلون الأنخاب مع ثعالب الثلج، ودمى النفط فأغرى الأفواه يلوذون بالدخان وأفخاذ الحريم والإماء، تسقط الدانة بجدارهم فتتفتح القريرة عيونهم ريثما يهدأ الضجيج، ويستسلمون للسبات العميق الجميل ..

كان لابد من توقيع عقد الشقة، وقد أوشكت المهلة الممنوحة لنا قسرا على الانتهاء . جئت بكل ما معي وهو قليل، وجاءت بما معها، وساهم ياسر بنصيب وشهد على العقد، واحتفلنا معا .. وكان لابد من بحث إمكانية إقامتها هنا، ورغم كوني مثلها مطارد، أو على الأقل غير مقبول فى أرضه، فلم يكن لنا أن نفكر فى الإقامة سويا ..

- لكن ممكن ..!

هكذا زغردت ..

- نعملها مكتب !

- مكتب ايه ؟!

- إعلام !

- الناس مهمومه بالبيضة والفرخة، والشقة، والفيديو ؟!

- إحنا نعلمهم !

كان حلما وسيبقى، وصعوبته فى مخاطبة قطيع بدأ السباق .. وكان .. عملنا معا متعة جديدة، حتى ونحن محاطين بالأشواك والثلوج، وانحل قيد عقلينا، انفك لسانينا، وألهمنا الإبداع الحق، كتابة وحوارا ومحبة، فهل كان لمثل هذا التفتح أن يترك ينشر أريجه ؟

كرهنا العد . الساعات والأيام .. الليالي الموحشة والشهور، الأعـوام التـي تفر وتتركنا ننحدر . كرهنا كل الكلام، فكل ما لدينا محيط من الكلام نغترف منه ونرش فى كل الأنحاء، وكانت الفوضى حولنا قد جمعتنا فلبسنا كـائنين وحيدين سقطا من عالم ناء فى بركة آسنة، كل ما فيها دود ورائحة عفنـة ! فأين ترانا نطير ؟! حتى أمك صمتت ولندا تدعوني الى حفلة خاصة . لنـدا التي خطبت من شهور بلا معنى، بلا مـذاق أو رائحـة ! وأنـت مريمـي البتول، صامتة ودامعة !

- هل تأتين ؟

- لا، أنا لا احب السهر .

ورفضت أنا الأخر، ولكنك بإصرار عجيب طلبت منى الذهاب معها، غـير هيـابة ذابحة قرابينك لأجلى، داعية إلهنا الواحـد منحـى السـعادة كيفمـا أشتهيها ..

كانت لندا قد اشترت شقة باسمها فى الزاوية الحمراء، وكان هناك خطيبـها الإنجليزي هانز ووجوه أخرى مع المجموعـة القديمـة، واثنـاء الاحتفـال بالضيوف الجدد، أذاع فورستر نبأ اعتزال جوربا تشـوف، وصحـح بيـتر الروسى مدافعها.

- أبعدوه عن الحكم ..

ولم ادر الفرح من الحزين وسط هذه المتناقضات، وكـان جرجـس يـدخـر مفـاجـأتـه لمثـل هـذه المـناسـبة، إذ وقف قابضـا علـى كأسه ومـد يـده الى هانا السويسرية التـي وقفـت بـدورها جـانبـه

الجــزء الأول من الحفل لضيوفنا ولجوربــا تشــوف، والجــزء الثــاني .. لخطبتنا أنا وهانا .

ثم تواجها وسط التصفيق وقبل كل منهما الآخر ..

لا أذكر أن كنت صفقت أم لا ؟ ولكنى لم أصافحـــهما .. شـــعرت بغربـــة، وظللت ممعنا في الأرض ألوك دخاني وسيجارتي .. تسرع بالتلاشي أمــــام سريان النار الزاحفة، وهذا الضجيج أخير ، فاستأذنت بهدوء وعدت . كنـــت في الصالة تكتبين، والموسيقى الخفيفة تقفز حولـــك وتغــرد أمــامك علـــى المكتب، وليس على الأوراق سوى بعض الخطوط بالرصاص، وصورة لنـــا في الحديقة، .. وشريط لفيروز .. وتحولت الموسيقى الى أنين، أنين قـــاطع وممتـــع وشـــجى . رفعــت رأســك شــاحبــة وشــاردة وتأملت حروفــك

– اشعر بالنار !

– نار ؟!

– أيوه كبيرة .

أنا وأنت محاطين بأشباح ومسوخ تحمل النار وتفح من أفواهها النار والســـم كل النيران وكل السم مصوب باتجاهك وأنا خلفك !

– وأنت يقظة هكذا ؟!

– نعم

بكل الثقة والأسى ! من أنت ؟ زرقاء اليمامة ؟! رابعة ؟! مريم ؟! ووســـدنا الفجر ضوءين ناحلين .. كانت شخصية جرجس الغامضة تثير ريبتي، فـــهو يجيد اكثر من لغتين، وله ورشة ومحلا لبيع قطع غيار الســـيارات، ولكـــن

طموحاته غير عادية، غير مقبولة .. علاقاته، آراءه، وحينما سـألتك لمـاذا يكره جرجس الدول العربية والأفريقية والآسيوية ؟ قلت.

- جرجس بالنسبة لي لغز مثل قضايا لبنان وفلسطين و .. !

وابتسمت بدعة . قلت.

- والصومال وأفغانستان ! ..

لكن العجيب انه كان يكرهني وتبدلت شخصيته العنيدة الى مسار آخر ! ليس حبا ولا كرها ! وزحفت حلقات الغزو الثقافي والإيدز أثار الانفتاح والبطالـة والفساد تخيم علينا من كل فوهة، ولم اكذب حينما قلت لـك (نحـن الذيـن نغزو أنفسنا غزوا بشعا !) وصباح اليوم التالي انفجـرت قنبلـة، وأطلـق الرصاص على حكومي بشع، نظرت إليك فلذت بالأرض ساهمة حزينة .

كانت تراود جرجس أفكار متجددة عن الهجرة، ومن تتبـع مسـار العائلـة، كنت أرى ثمة اتفاقا خاصا قد ارتضوه، ففي حالة تيقنهم من عـدم جـدوى عمل شئ مهم فلا بد من الهجرة .. الى كندا بالتحديد . وقد هاجرت بـالفعل اكثر من ثماني أسر هي ثلثي هذه العائلة، ولكن جرجس يبدو أثنـاء بعـض المناقشات كأنه لم يحسم رأيه بعد ... فقط كان يلمح إلى ثلاثـة خيـارات .. إلى كندا بالتحديد فقد هاجرت أكثر من ثمانى عائلات هى ثلثى هذه العائلـة، أو ألمانيا حيث الأصدقاء الألمان وبعض المصريـين والعـرب، (فرصـة الدخول الى منطقة الوجدان الهشة فى الألمان هي الإحساس بـالذنب تجـاه اليهود ..) هكذا يرى إما الخيار الأخير، فكان البقاء بطريقته . تنمية أشـياء معينة ووعى خالص يقوده هو ويوجهه بطريقته .

وحين عدت مثقلة بالجراح والألم، طلبت اجتماعا ثنائيا (ســـأترك الآثـار، المسألة كلها واجهة للابتزاز، ودائما كما تعلم، لصالح الكبار) أنت تريديـــن التفرغ لي، وهذا كثير (لا شئ مهما بلغ يساوى لحظة معك ! ولكـــن هـذه هي الحقيقة، نحن لا نفعل سوى ملء استمارات بدل اجتماعات وبدل لجـــان وبدل سفر وبدل انتقال وبدل استضافة وفود وإقامة مهرجانات ومؤتمـرات ! هل تصدق ؟!)

– والعمل ؟

– سأتمرن في معمل تحاليل، هنا بالقرب من البيت .

ولم يمض شهر وجئت فزعة مما رأيت، وتسكعنا ليالى طويلـــة ونـــهارات غير مستقرة، وقد دب فينا نشاط غريب .. مجرد انتهائي من قراءة بعـــض خواطري، صحت بانفعال.

– مدهش ! إنها إبداع جميل !

وبرقت عيناك بفرح غامر . قبلتني وأتيت من مكتبك بكل ما كنـــت تكتبينـــه خلسة.

– كل ما ادخرته

لم ننم ليلتنا من الفرح، واختتمناها بقرار المضي فى طريقنا، وبعد الإفطـار، ذهبنا الى مكتب الجريدة . قدمنا بعضا من أوراقنا، ومضت ثلاثـــة شـــهور، منحنا بعدها مبلغا كبيرا ووظيفة لك، وكان أولى هداياي .

– ما هو منشور الآن بالصحيفة ردا على سؤالك ؟

[أنا التراث وأنا الحداثة .. نحن لا نملك تراثنا . لدينا تراثا ونســـتورد مـــن الغرب شفرة التعامل معه، وعلينا الاجتهاد لخلق طرائق التعبـــير المناســـبة

عنه .. لا توجد آمة بلا تراث لان التراث فينا نحن البشر وليس في أي شـئ آخر، ليس في الأحجار والمتاحف، بل ما تحرك معنا وتفاعل فنيـا، نفعلـه ونقوله .. وأنت من تراثي ..] فماذا فعل المشرف على الصفحة ؟ حـذف الجملة الأخيرة بغباء ! وصممت على الاستقالة وفى النهاية اعتـذر وبعـث برسالة تصحيح الى إدارة الجريدة !

كنت فى سيرى المح فى العيون المحدقة إعجاب، كأنني أحقق المعجزة . هـم المتفرجون يتسلون باللب وأنا فارسهم فى الحلبة، وابتسمت من كلمـة حلبـة هذه، .. فليس فى الحب نزال . أنا فقط أتقدمهم بأحقيتي العقلية، بتسـامحى، بفهمي لإنسانيتي، فهذا الحب لم يعرفه أحد قط . حب العقل والمشاعر، الفـهم الحقيقي للمثل والقيم دون التنازل عن الجزء الفوضوي فى الحياة، المسـاحة المتحررة .. أن تصلى وتضحك وتحب، تنفق وتأكل وتسـتمتع، لكـن دون تنازل . وبغير سوقية بلا تبذل، أن تملك الشجاعة والأناة فى آن معا .

– لماذا أنت دامعة ؟ سألت نفسي قبل أن تتقدم الى .

– تقدم لخطبتي قريب لنا من بعيد . شاب من المنيا اسمه عياد . طلب منـى جرجس الاستعداد لنصف الإكليل بعد أسبوعين، والإكليل بعد ستة شهور .. انفكت ضفيرتها الفرعونية وسابت كـأقدام الصليبيـن ورمـال الهكسـوس المتناثرة, وفمها اليسوعى المتضرع، إنفتح، وعيناها العربيتـان الواسـعتان، ضاقتا . ! وقلبي لا يطاوعني فى الفرار !!

– قلت : احبك وأنا المؤمن .

فانفجرت عيناها دهشة :

– ولماذا بالحرقة تبكى ؟!

- هل تعيدين مقطعا من الفيلم القديم ؟ تستكملين القصة ؟!

لم تطفئتي أمطارها المنسبكة

- بتكلمي جد ؟!

- للأسف !!

- وبقية القصة تفشل الحب، أو تجمعه فى رومانسية خائبة، فما العمل ؟

- نحن لسنا قصة ولسنا مقطعا .. نحن حياة وخلود !!

- ليكن التحامنا أبديا وجديدا .

- بدون شك .

وبدأت من حولنا، وفى قلبينا اغتيالات مخططة تنفـــذ بعشـــوائية، وخطــف البرق أبصار الناس إذ تبلد دعاة متوجون وتحفزت لحى .. اشر أنبت طــواق سود، وسنت الأنياب. اكمشنا، وغيب ضوؤنا، وقليل يهتدي .. شيخ وعـــى، وقس فهم، لم يفرا الى الجبال أو المنتجعات، ولم يهنأ بالهما وهما لا يحســنان الصراخ .. أمد يدي، وتمدين، نقيلهما، نظلهما معا ..

فشلت فى عملي، واشتغلت عملا خاصا ففشلت، حتى الأشياء الصغيرة فـــى منزلي تعبت فى محاولة إصلاح الكاسيت فلم ينطق وازدادت عيوبه، ولكنـــه قادني الى تأمل مسار الذبذبات، كيف تنتقل من الإرسال الى هنـــا وهنـــاك ! مادة الكلام ما هي .. وما يختص بعملي لم افعـــل ســـوى تـــأمل الأزهـــار والنباتات، وصعود الماء والغذاء الـــى الأوراق، ومعجـــزة تكـــون الألـــوان المختلفة على ورقة واحدة (مم تتكون الألوان ؟ والتراب ؟ والماء ؟ ..) ثـــم مذاق الثمرة هذا الإعجاز المذهل !

طارت فلوسي وناسي، وضاقت بي السبل والوسائل والوجوه، وفكرت للمـوة الأولى فى الانتحار وفكرت بجدية واستعرضت الكيفيات التي اختار منـــها ما يناسبني، ثم تأملت فى لحظات الموت وما بعدها، واخيرا، قوالب الطـوب والحديد الصدئ الساكنة، أو التي تظن نفسها تتحرك وهى فى الحقيقة مثـــل حبات الذرة يدور بها حجر الرحاة دورات قاتلـة .. مـاذا سـيقول هـؤلاء الحمقى البلداء .. كان بيننا بالأمس، كان نابغة، لو عاش عاما واحدا لصـــار كبيرا .. وتشتعل السجائر ويمص الريق الجاف وتكر مش الجبـــهات قليـلا أمام العيون المحدقة، ثم .. لا شئ .

سأخرج الآن إلي الهواء، إلي الطرقات الخالية ابحث عن عالم أخر جديـــد، عن مدن نسير عليها بأقدامنا . قد تكون الإســـكندرية، تنــتزع حبــها مــن الاسكندر، وقد تكـــون القـــاهرة .. الفاطميــة أو المملوكيــة، الأيوبيــة أو الإخشيدية، العمرية أو الفرعونية .. أريد الطيران للحظة، مللـــت هجرتنـــا رغم كوننا في المواجهة، سأخرج كي أحيا قليلا، استنشق الكون، ادب علـــى الأرض فوق رؤوس وآيات هرمت، أو ممالك فرت من الســـوء . ومـــدن تنتظر الطارق، قد يفتح الفراعنة لي خبيئتهم، أو ابن الوليـــد . ربمـــا التقـــى بأناس يعرفون كيف يحبون وتعبدون ..

– أنا لم أخنك، لكنى اطلقتك تتجدد، فبدل لونك واقرأ فـــي ســـيرك بـــالعين وبالقلب تلك الآيات على الجانبين ..

– انتظر لحظة .. هل رأيت في عيني نحيبي، أو عشقي ؟ !

– أوت روحك إلي مخدعنا إذ توليهم ظهرك أو تلصقه بالحـــائط، تزفـــر أو تشهق، فأنسى بالضوء وجرب وضوء الروح .

– أجنبي ونبي أن نعبد الأصنام .
– البهجة والسعادة والصدق، أمامهم في الشارع والحقل، ودائما يحيدون عنها وهى تناديهم..

قالت لي (حطم أصنامك وأنا اكسر صليبي ونلتقى هنـــاك، عنـــده .. هـــو النهر) هربنا بارتعادنا، بوحشتنا وخيبتنا، فزعنـــا مـــن القـــاهرة العـــامرة، المسكونة، المعتمة، القاتلة، وفى ضاحية من ضواحيها سرنا صـــــامتين أرى دموعها واحبس دمعي حتى ثقلت أقدامنا فجلسنا متعبين ضـــامرين وهنـــاك، رجل وامرأة .. يصعدان المنحدر، يدها المتعبة ممدودة بتوسل وعلى مـــــهل ثنى يده فتشبثت كفها بالذراع، وظلت تتسحب حتـــى عـــبرت إلـــي الجهـــة الأخرى، أخيرا استقرت كيد زوجة في يد زوجها، ترفع رأسها إليـــه فـــترى وجهه متباعدا، وحينما قابلتهما الريح . عبأت فستانها الدمور فانجلى البطـــن المدور ، وبلمحة خاطفة مسحت بالكف الأيمن علـــى انتفاخـــها، واختلســـت نظرة جانبية إلي وجهه فرأت عيناه تتلصصـــــان، ونظرتـــه تقـــاوم إغـــراء العابرات، لا تبرح الاستدارة المغوية، وحاولت استمالتها حينما كـــثرت فـــي رأسه الأسئلة، لكنها انشغلت بفرد طيات الفستان، وكلمـــا اشـــتدت الريـــح، واقتربا من نهاية مرصودة، ووصلا أعلى المنحدر، التفت إليها كي تتنحـــى جانبا هناك عند الحائط، ولكنها، هي الضعيفة الواهنة، أبدا لم تغير اتجاهـــها في مواجهة الريح .. وعلى مقربة، شاعر اعرفه ولا يذكرني، يتقلص علـــى مقعد متعبي الطريق، يرقب خصوبة الريح مع المرأة . أو مأت إليه فأســـرع يمسك سيجارته، أشعلتها له ثم انزوى، لا يجد من يسمع شعره . منذ عرفتـــه

وهو يقاوم رياح المكاتب فألقته خارجها إلي ريـــح الخــلاء، يبحلــق فـــي، وتنسحب نظرته إلي صدره يزفر أنة مكتومة .
الآن هو الدهر . ليس لي أن أعود مرة أخرى ! كل الصور حفرت داخلـــي ثم تلاشت، كل الوجوه المائية والزئبقية والجرانتية، شارع الكنيسة وطريـــق الترام، لندا العطــشى توسع مسامها كي يزداد امتصاصـــها لتشــبع نهمـــها الخطر ، وجرجس باق على تشوقه ينتظر أصدقـــاءه الذيـــن ســافروا منــذ شهور، وقد استلم بالأمس رسالة من هانا، هي الثالثــة بعــد رسالتين مــــن فور ستر وهانز، وقرأ بفرح تأكيدها هي الأخرى بالحضور قريبا، وكلمــات حب وشوق، تماما كما جاء في الرسالتين السابقتين، والتمعت عيناه بـــالفرح فهو حبيب .. نــادى لندا وأعــطاها الرسالة . نظـــرت لـــي وقمنــا إلـــي البلكونة.
- وأمك لا تجد فرنسيا يفك رموزها هي الأخرى ..
حين دخلت، أطلت بعض الوجوه، وسرى همس، وغمزات تسربت . فــاحت روائح البخور يحملها أطفال بملابس بيضاء، أتطلع إلي الرسومات المتقنــــة على الجدران، هي نفس الرسوم التي شاهدتها في جبا نيـــوت خطوبتــك .. هي مرتي الأولى التي أحضر إكليل زفاف وفى نفس الوقت قداس جناز .
دخل الشماسون بملابسهم الموشاة المتشابهة، وكبيرهم، ثم العريف .. كلـــهم دخلوا يقتلعون قلبي، وهذا المصلوب هناك أعلاهم لا يفعل شيئا !
كاتدرائية القديس أنطونيوس، كان كل من في الحفل يعرف رغم إننـــي لـــم أرهم من قبل، تفاديت النظرات المصوبة تجاهي، متشاغلا بتأمل الرســـومات على الحيطان .. المسيح مصلوبا الحواريون، الملائكة، المسيح طفلا، ونســاء

أتقن تصويرهن يحملنه، وأخريات يستلقين على العشب عارية أفخاذهن فـــي دعوة صريحة للاشتهاء، والشموع الموقدة في الأركـــان اســفل الرســومات تغذيها فتنة، وعلى الحائط المواجه (اسجدوا لله بخوف ورعـــدة) مضـــاءة بالنيون وعلى اليمين (ما يجمعـــــــــه الله لا يفرقه إنسان) ، (الســـت إنسانا ؟!) واخيرا ظهرت جوقة المنشدين بجلابيبهم البيضاء وعلى صــــدر كل منهم وشاحا احمر عليه الصليب، وفى المؤخرة علـــى الدكـــك الأخـــيرة بجوار الباب شبحين يشبهان الأمريكي والروسي .

كنا في الغابة نسبح في محيط اللذة، اللذة التي افتقدنها طيلة الأعوام والدهـــور حيث كانت الحياة مجرد طعام وشراب، وليس ثمة دافع أو حماس لاكتســـاب متعة الحياة الحقة .. ومتى التقينا بعد انشقاقنا منذ الأزل، أشرقت الحيـــاة .. ولدنا، وأدركنا لحظة لقائنا وجها لوجه كم سبحنا في الفضـــاء البشـــرى دون تدخل القدر لجمعنا، ثم جاءت مشيئته الجميلة .. وأنت تحطين عنـــد تخـــوم توهجي في أجيج ناري ولين مائي .. تفقدتـــك ولـــم اعـــد . تعـــانق لـــهبي المشرئب بلهيك المطل فاستعرا . التقت عيوننا فتسربنا .. أنا فيك وأنـــت في . دون كلمة أو تفسير وتوجهنا إلي غابتنا نتنهد بعـــد ارق البعـــاد ننـــال قسطنا من الراحة، كل حواسى وأعضائي تجد فيك مشتاها، وقبل الفجـــر .. قبل الفجر بلحظات، امتدت يدي تتحسسك ولم ترتد وعقلي معي . أدركت يـــا للهول إنني فقدتك . هل يمكن لإنسان مثلى أن يحيا مثل هـــذه اللحظـــة ولا يموت أو على الأقل يجن ! ؟

أنت التي سميتك منذ الأزل، منذ المراهقة والمعرفة، وبحثت عنك فلم أجـدك، وظلت ابحث وأنادى فناديت أختي وزميلتي وصديقي باسمك، نمـــت معـــك

وحاورتك . لم افقد اليقين لحظة بأني ملاقيك حتما في مكان ما، في لحظـــة ما، وجابهت ما جابهت بغية الوصول إليك، سرت أرنو إلي الوجوه أســألها، النجوم والشجر، السيارات والمكاتب، ثم أعود إليك في صدري وعقلي هربـا من كل الوجوه أسألك عن عنوانك ! اسمك ! .. سارة، ربى، يـــارا، نـــهى، ريم، مريم، هاجر، سلمى، هي، لاتهمني الأسماء فأنت بداخلي نكـــبر معـــا، ننمو سرا متحققين لا ينقصنا سوى الشكليات، وغمرنـــي صمـــت الدهشـــة، أخشى عليك الوقوع في يد أحد هؤلاء البشر فتعذبين كما أتلظـــى، تجلســين وحدك وتسهرين محملقة دامعة بحثا عنى، فوجودهم يفصلنـــا . لمـــاذا لـــم تكوني أنت ماريا وأنا نبيك ؟! كانت لندا واضحة، تأخذ ما تريد، لم تكن لـــي شيرين، ولكنها ومضت بأفقي لحظة وخبت، وجعلتني أنت مجرد رســـول .. أنا عندك اللخمى، حاطب بن أبى بلتعة ! أأكون أنا الواهم حقا ؟! فما بـــال سطوعك الدائم بسمائي!! كلا ! فما أنت ماريا، ولا أنا النبـــي، ومـــا أختـــك شيرين، ولم أصل بعد أن اكون حاطب اللخمى، وليس لكمـــا مـــن مقوقـــس مولى، وألا فما وجودي هنا الآن ؟! وماذا تفعلين ؟! لماذا أنت شاحبة هكـــذا وحـــزينة !؟ فيما كل هذا الأسى الموجع يطفر من عينيـــك ويحـــوم علـــى الجبهة ؟ ألم ينقض الأمر ؟!

مما لك هناك، ومما لك هنا، مما لك إماره بالسوء، وممالك إمـــارة بالـــهوى، مما لك صفعتني وارتحلت، ومما لك بصمت هجرتني . مما لك صعدت بـــي إلي الذرى وتهاوت، مما لك غوتنى، ومما لك توزني الآن لأحطم كل شـــئ، افقأ هذى العيون المتلصصة على، شامتة مثل فئران جربه !

ليس ثمة متنفس، وأنت تسحبين شبحا خلفك وتخرجين إلي السيارة المزينـــة، فأغادر نفسي وأمضى ابحث عن نجماتي الليلية، وحدي في ضـــوء عليــل، مصلوب على الحوائط الحجرية لأسوار الكنـــائس، فـــلا نجمـــة هنـــاك ولا صدى، وأتبين - يا لغفلتي - هدية أمي إليك محبوسة بكفـــي ميتـــة، فمــن انسانيها ؟!

كنت في الحجرة وحدي، وضعت الهدية على الترابيزة ووقفت، اطـــل مــن نافذتي بعد الثانية صباحا، تركتك هناك لحظة رمقتني واســـتدرت، ترفعيــن القدم إلي السيارة (شهيدة، صعدت خلال السحب البيضاء، مرقـــت تجتـــاز المدى، وحالما غابت، غام الأفق .. وأمطرت ورودا وفلا ..) انسكبت فـــي الفؤاد، وهطلت أحلاما شفافة في غلالات وجـــد شـــوق. غفـــوت مرشـــوقة بصهيل وأفاقات تذرو وجع اللوعة فلم يتبق غير جفاف لا يرطبه حينا ســـوى رجع الهوى، وأنا أناطح الزمن مع ما تبقى من فتات الكلام، وثرثـــرة آخـــر الليل في ظل أوراقي الجافة، ارتق حالي مع أفكار مهجورة لم تنضج بعـــد، وما بلغت فتوتها، والأماني التي كانت وغادرتنى .

كانت قد لاحت على المدى، في عنان خيالي مبتهجة باسمة، حيـــث شـــمس صغيرة تتفتح، وضباب، وجفل بدني في الصقيع متوثبا إلي رحابة الحضـــور الأسر وشساعة الدفيء الآتي .

كانت على البعد هناك تغنى، وأنا اسقط فى الحريق، حريق اللذة المفقـــودة . وحالما انقل الضوء من ظلمته، نهضت واقفا بفعل حبطات ملهوجـــة علـــى الباب، يقذفون الى الداخل كالأحجار، يفتشون الحجرة شبرا شبرا .. تحـــت السرير والكنبة، الكتب ! المقعدين الوحيدين !، يطلون من الشباك !، واســـأل

فلا يجيبني أحد، يتوزعون في المنزل يفتشون وينبشـــون غـير مصدقيـن، يتجمعون خائبين ويجيبني كبيرهم بعد نصف ساعة بسؤال.

– فين سوزى ؟

اهتززت والبيت يغطس بي، لا أعرف ردا، فأنا فرح لخلاصـــك، مندهـش لصمتك، معتصر خوفا عليك، وأنا .. قلت.

– وزوجها ؟!

فلم يسمعني أحد .

كل دقائق اليوم نهرول من بيت إلي بيت، من قرية لأخرى، مدن وشـوارع، ضواح وكفور، نسعى بالشوط كمسعاي الأول حين جئت مع جند عمرو بحثا عنك، ولكننا الآن لا نعثر لك على اثر ! فهل غيبتـك عصابـة جرجـس أم انتقمت الأحزاب منى ؟

وبدأنا نسمع همسا، وفى المساء وقد فترت قواهم جميعا، اقترح أحدهم إبـلاغ الأقسام والمستشفيات !! عروس تفر من منزل زوجها ليلة الدخلـــة نبحـث عنها في الأقسام والمستشفيات !

وازداد الهمس المتربص بي طعنا، وقيل انتحرت .. وأنا أعرفـك . كيـف يحدث هذا ؟! ألم تقولي (في حلكة الظلام لا أفكر في الانتحـار وادع دنيـا أنت فيها !) وكنت تردين على مجرد ذكر الكلمة !

في الليل الطويل المزدحم بالهواجس المجنونة، صعدت أقدام كثيرة .. دفعـوا الباب وتوزعوا في البيت يفتشون من جديد، كل شئ وأعلاه واسفله وداخلـه وخارجه، فلا يجدون سوى هدية أمي لك مرمية على الترابيزة.

– قد منحتاك فرصة !

يلتقطها أحدهم ويكشف غطاءها، يسألني لمن هذه ؟

- فأجيب ! لك .. لها

يلقيها على الأرض، ثم يركلها فيلتقطها الأدنى ويدسها في جيبه الواسع جـدا تحت البالطو، ثم يسوقوني إلي حصنهم .

(يوم ويومين، وجمعه وشهر وشهرين ..) ومال مخبر بأذني

- بيقولوا إنها حامل !

حامل ؟! وممن ؟!مني أنا ؟ فمتى حدث وأين ؟! في أشبيلية أم في البلقـان ؟ أم كان على سطح الطور وأنت تتقصين أثرى على هدى خطى موسـى ؟ أم على وهاد سيناء تسائلين عن هاجر وسارة أيتهما أقرب إلي قلب الخليل ألـم أجيئك لاهثا في ركاب عمر وأمنحك الأمان من نيران الفرس وأضعك حيـث يجب أن تكوني درة في القلب ؟ فماذا كنت حينما جئتـك .. شـبح وحشـي ملقى أنهكه الرومى زيتونه اعتصرها وصار يلهو بالنواة ..

كنا في حجرتك نعالج جروحك حين سألتك عن صورتي، تلك التي اخترتـها وعلقتها بزهو في المواجهة، فبماذا أجبت ؟ تدلى رأسك ففهمت انه تشـاجر معك بسببها (يريد اقتلاع كل شئ يخصني !)، وبقيـت الجـدران مزينـة بالصور الطبيعية والشمعدانان، وعلى الكوميدينـو لمحـت كعـب الشـريط الخاص بك . سورة مريم، وصورة الشيخ رفعت على ركن الواجهتين فـي الزاوية اليمنى . انتزعته من علبة الشرائط الموضوعة على بوفيـه الصالـة المزدحمة بالتماثيل وصور الصلب . وقفت ومـددت يـدي إليـك، ولكنـك تلاشيت ولم اصدق عيني . انحنيت أتحسس موضعك الدافئ وأشم أنفاسـك، وانفتح الباب بغتة وأطلت لندا بتفجرها ضاحكة (السردين جاهز) .

لم يتركنى الأوغاد أهنأ معك . لاينتهى الأسبوع حتى استدعى إلي أمن الدولة (هل هو أمنها ؟)، وحينما أعود، تتسكبين على وفى ملهوفة وفخورة
– كأنني بطل

أقول لك :

وجدت مادة تكتبينها عنى.

– أنت الذي ستكتب عنا يا قلبي

هل تدرين بأنني موقوف هنا رهن التحقيق ؟! ليست نكتة سخيفة ولا سخرية مرة أو لاذعة، صدقيني . أنا متهم بتهريبك أو بقتلك، أو بتحريضك ! والمتهم أمك وجرجس ولندا !

وهم هنا فرحوا باتهامي، وحادث أمن الدولة الشرطة التي هي في الخدمة (هذا يخصنا) ومن الأمن إلي الخدمة، من الخدمة إلي الأمن . قلبي معك، وهدية أمي لك اغتصبت بعد وطئها بأقدام الدرك الليلي السري . أنا هنا، وأنت أين ؟ أين ؟! فهل تدرين الآن أين أنا وكيف أكون ؟ .. انتظرك حقيقة أمام العيون، تجلى القلوب، ارقب طلعتك صحيحة بلا قسم، نضرة بلا لون، مزدانة بظلالك الفيروزية .. وجودك الآن هو براءتي، هو تعريه لخبثهم وحقدهم .. أجيبيني .